البـــابُ الأولُ

التيار الإسلامى وتربيـة المرأة المصريـة قبل التجديد

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المرأة فى الإسلام

عند الحديث عن المرأة فى الإسلام نرى من الضرورى أن نقدم بعجالة موجزة عن المرأة فى الجاهلية ذلك لأن بعضًا من العادات والتقاليد الجاهلية قد انتقلت إلى حياة المرأة المصرية وأثرت فى تربيتها سواء ما كان حسنا من هذه العادات مثل العفة والتقدير لها كأم والود لها كأخت مما يساعد على تقوية الروابط الأسرية فيحفظ للأسرة المصرية تماسكها وتكاتفها ، أم ما كان قبيحًا منها مستهجنًا ، مثل النفور من ولادة البنت وتفضيل الولد الذكر عليها ، لما يصاحب تربيتها من خوف ومشقة .

المرأة فى الجاهلية :

تعرضت المرأة العربية فى العصر الجاهلى لمثل ما تعرضت له المرأة فى العصور السالفة . غير أن البعض يبالغ أحيانا حين يزعم أن المرأة العربية عانت أكثر مما عانته مثيلتها فى العالم القديم أو أنها تعرضت لظلم أفدح مما وقع لغيرها فالحقيقة أن المرأة العربية إذا كانت لها صورتها المظلمة فلها أيضا صورتها المضيئة فلم تغمط كل حقوقها كما حدث لغيرها بل كانت أعلى مكانة وأرفع منزلة ، شاركت فى الحياة الأسرية فعنيت بتربية بنيها وشاركت زوجها فى سرائه وضرائه فكانت الزوجة الودود والأم الرءوم وبلغ من اعزاز العربى لها كأم أن الأبن كان ينسب إليها أحيانا مثل عمرو بن كلثوم وعمرو بن هند . وكان لها حق الملك والتصرف فيما تملك . يقول القرآن الكريم ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ – سورة النساء : ٣ – فالآية تؤكد الملكية وإن كانت تعيب الظلم وعدم القسط . وقد سأل عروة بن الزبير السيدة « عائشة » رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : « يا ابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها لتشاركه فى ماله ويريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن

obeikandl.com

وتنفيذ تعاليمه بقلوب واعية وعزائم ماضية فحضارة الأمة لا تولد فجأة ولا تنجم على حين غرة ، وإنما تولد بعد زمن طويل وماض بعيد كفيل بالتبدل والتطور .

هذا وقد عرض القرآن الكريم لوضع المرأة الجاهلية من ثلاثة جوانب :

١ – جانب استنكار وجودها .

٢ – جانب الملكية حق التصرف .

٣ – جانب الزينة والتبرج .

وهى كلها جوانب متكاملة ينتقل القرآن الكريم بعدها ليقدم الصورة الصحيحة للمرأة ويحدد الإطار الكريم لها .

الجانب الأول :

عن الجانب الأول : يقول تعالى ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ – النحل : ٥٨ ، ٥٩ – ويؤكد الله تعالى لومه وتقريعه للكفار بقوله ﴿وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت﴾ وواضح أن هذه الآية وردت فى سياق التهديد والوعيد بيوم القيامة إذ يقول تعالى قبلها ﴿إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت﴾ إلى آخر الآيات – سورة التكوير –

ونود أن نذكر أولا أن عادة وأد البنات لم تكن وقفا على العرب وحدهم فقد كان الإغريق يقتلون الضعاف من الذكور والإناث . والفينيقيون كانوا يعبدون الطبيعة ويرمزون لها بصنم إسمه « بعل » يمثل إله النور المسمى « مولوخ » واتخذوا له زوجة أشركوها فى الإلوهية سموها عشتروت – الزهرة – وكانوا فى عبادة عشتروت يستبيحون النساء عامة وفى عبادة مولوخ كانوا يضحون بالأولاد إحراقًا فى النار الملتهبة . وكان الإسبرطيون يقتلون المشوهين والمرضى والضعاف من الأولاد عقب ولادتهم ويتركونهم فى القفار طعاما للوحوش والطيور ، وقد تتحقق الأم نفسها من صلاحية ولدها للحياة فتغمسه فى دنٍّ من النبيذ مدة فإن عاش دل على قوة بنيته وجدارته بالحياة فيربى وإن مات فقد تخلص منه المجتمع . وقد أقر أفلاطون وأرسطو هذا النظام . وكان الطفل فى روما يوضع عقب

ولادته عند قدمي والده فاما أن يرفعه فيصير فردًا فى الأسرة وإما أن يحمله إلى مفترق الطرق ليموت أو ليصير من الرقيق[١] .

أسباب الوأد :

- الخوف من الفقر .
- الخوف من العار نتيجة الأسر أو السبى .

وهما سببان يتصل كل منهما بالآخر إتصالاً وثيقًا فالحروب إنما كانت بسبب المال ، ودافع الفقر وحمايةو العرض .

وهناك من يرى أن الوأد ليس دليلا على إنحطاط المرأة ذلك أنه حين تضطرب الأمور وتتأزم الحياة نتيجة الحروب الطاحنة أو الزلازل والبراكين المدمرة فقد تتغلب الغريزة الخاصة بالطعام على غريزة الأمومة والأبوة فيضطر الوالدان إلى بيع أبنائهما أو تركهما ، فالإسرائيلى مثلا كان يبيع نفسه وأولاده إذا إحتاج ، وعلى هذا فالوأد فى حالة العوزا بقاء على النفس وتجنيب للبنت مما تقاسى من شظف ، أما الوأد خشية العار من سبى يقع فليس حجة على ضعة المرأة عند العرب بل إنه دليل على صيانتها[٢] .

وقد حارب الإسلام الوأد خشية الفقر حيث قال تعالى ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية أملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ – الإسراء : ٣١ – وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم من أملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ –الأنعام : ١٥١ –وفى الآية الأولى قدم الأولاد على الآباء فى مقام الفقر الواقع الحادث وفى الآية الثانية قدم الآباء على الأبناء فى مقام توقع الفقر والخشية منه فى المستقبل .

على أن الوأد وقع أحيانا فى الطبقة الغنية فقد روى أن مهلهل بن ربيعه أمر زوجته حين ولدت له بنتا أن تقتلها فأمرت خادمًا لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها بإحسان تربيتها فكبرت حتى تزوجت[٣] . ويبدو أنه صار عادة حتى أن الرجل كان يباهى بالوأد .

---

(١) صالح عبد العزيز ، تطور النظرية التربوية ، القاهرة : وزارة المعارف ، ص ١١٥ .
(٢) أحمد الحوفى ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، ص ٢٤٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

obeikandl.com

والعضل يعنى أن يمنع الورثة المرأة المتوفى عنها زوجها من التزوج لتفتدى ما ورثت عن زوجها أو تعطيهم الصداق الذى أخذته ، وكان الأزواج يمسكون زوجاتهم أحيانا من غير حاجة إليهن فيضارونهن ويضيقون عليهن ليستردوا بعض ما آتوهن .

ويتصل بهذا أيضا الزواج بالميراث حيث كان الرجل إذا مات وترك زوجة ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه فمنعها الناس فإن كانت تعجبه تزوجها وإلا حبسها حتى تموت[1] .

وواضح أن الغرض من العضل والزواج بالميراث إنما هو الإبقاء على ثروة المتوفى والإحتفاظ بها فى العشيرة والتحلل من تقديم مهر جديد ، وميراث الزوجة هو الوسيلة إلى ذلك .

الجانب الثالث :

وعن الجانب الأخير وهو جانب التبرج والزينة ، قال تعالى ﴿وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ . (الأحزاب : ٣٣) . والآية تبين أن التبرج كان شائعًا ومنتشرًا فى العصر الجاهلى حتى ليقال إن المرأة فى الجاهلية كانت تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ، وقال تعالى ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ (النور : ٣١) والنهى لا مبرر له إلا إذا كان هذا شائعًا وموجودًا قبل الإسلام .

وهذا ليس بغريب على مجتمع إعتاد أفراده شرب الخمر ومعاقرة القيان . كما أن البغاء كان مسموحًا به لديهم ، قال تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ . النور : ٣٣

هذه هى ملامح المرأة الجاهلية كما أبرزها القرآن الكريم : إستنكار لوجودها وخشية منه ، استلاب لها وهضم لملكيتها ، ودفع بها إلى التبرج والزينة بغية إرضاء الرغبات الجسدية المحمومة وإجتلابا للمال .

وفيما عدا ذلك تبقى للمرأة فى الجاهلية ملامح أخرى أقرها الإسلام وأكدها منها العفة والمشاركة فى الحرب فشاركت فيها فى الجاهلية كما شاركت فى الإسلام ، ومنها

---

(١) القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٥ ، القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٩٤

التكريم لها كأم والحب لها كزوجة والبر بها كأخت على نحو ما فعل صخر مع أخته الخنساء .

كما أبقى الإسلام على كثير من الأمور التى تتصل بوضع المرأة فأقر الطلاق وقد كان فى الجاهلية ثلاثا على التفرقة فإن إنتهت فلا سبيل إلى الرجوع ، كما أقر صورة من صوره وهى الخلع بمعنى أن تفتدى المرأة من زوجها وتختلع منه وقد أقره القرآن الكريم لصالح المرأة فقال تعالى ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ – البقرة : ٢٢٨ .

أما الظهار وهو قول الرجل لامرأته « انت على كظهر أمى » وأما الإيلاء بمعنى أن يترك الرجل زوجته السنة والسنتين إيذاء لها فقد حرمهما الإسلام .

كذلك أقر الإسلام أن تكون للمرأة العصمة أو أن تشتريها بمال .

كذلك أبقى الإسلام على الأخذ بالعدة إستبراء للرحم وضمانا للنسب ولقد اقرت الجاهلية عدة المتوفى عنها زوجها ، يدل لذلك ما ورد فى فتح البارى جـ ٩ ص ٤٢٨ وما ذكره البخارى من أن إمرأة توفى عنها زوجها فخشوا على عينيها فأتوا رسول الله ﷺ فاستأذنوه فى الكحل ، فقال لا تكتحل قد كانت إحداكن تمكث فى شر أحلاسها فإذا كان حول فمر كلب رمت ببعرة . فلا ، حتى تمضى أربعة أشهر وعشرا .

كما أقر الإسلام أيضا المحرمات من النساء ويحددها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من اصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورًا رحيمًا﴾ . النساء : ٢٣ غير أن الإسلام زاد تحريم امرأة الأب والجمع بين الأختين وبين المحارم مطلقا فقد نهى الرسول عليه السلام أن تنكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها ، والمرأة على خالتها أو الخالة على بنت أختها . وأقر الإسلام التعدد فى الزوجات وكان معروفا فى الجاهلية ، غاية ما فى الأمر أنه حدده ووضع الضمانات الكفيلة لوقوعه وسنعرض لذلك فيما بعد .

المرأة والإسلام :

والحديث عن المرأة والإسلام إنما يستمد أهميته من حيث أن كل العوامل الدينية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية التى دفعت بتعليم المرأة إلى الأمام خلال القرن التاسع عشر – كانت تستمد تأثيرها من هذه الصورة التى حددها الإسلام ، كما أن الأهداف التربوية لتعليم المرأة كانت تستلهم أيضا من هذه الصورة سواء فيما يتصل بتحقيق الكيان الإنسانى لها أم الإعداد الأسرى أم الحياة العامة .

وبقدر ما كان الإسلام تصحيحًا للعقيدة بقدر ما كان أيضا تصحيحًا للسلوك والعمل ، فالعمل هو التجسيد الحىّ للإيمان ، والإسلام هو التشريع الخالد الصالح لكل زمان ومكان .

وعلى هذا فإذا كانت المرأة تتمتع بكافة حقوقها اليوم ، وإذا كانت تحظى بما لم تحظ به فى الماضى . فإن الواجب يملى علينا أن نبحث عن جذور هذا التطور فى تعاليم الإسلام لنرى إلى أى مدى كانت هذه الجذور راسخة قوية .

ومن الواضح أن أصل الإنسانية رجل إشتقت منه المرأة لتكون له نظيرًا ومكملاً فى الوجود والحياة والهدف والرسالة ، ومنها تشعبت الإنسانية على الأرض . ولكن المرأة أكثر من نصف الإنسانية فهى التى تتقبل الحياة وتضيف إليها وتحملها فى باطنها وتغذوها ، ثم تمدها فى جميع إتجاهاتها فتعنى بالرجل والأبناء والأحفاد ، وبذلك تصير مركز الإلتقاء ، كما كانت مصدر التفرع ، وهى مصدر الحب الذى لا نهاية له للجميع ، ولولا ما هيأها الله له وما منحها إياه من الحب والإخلاص لإنهارت الحياة كلها .

فالإسلام حين يضع المرأة فى مكانها الصحيح ، وحين يرسم الخطوط الأساسية لمعالم الصورة التى تشوهت فإنه يقيم الدعامة الأولى لبناء المجتمع الإنسانى السليم . ومن منظور الإسلام سننظر للمرأة من ثلاثة جوانب :

١ – المرأة والقيمة الإنسانية

٢ – المرأة والحياة الزوجية

٣ – المرأة والحياة العامة

أما الحديث عن تعليم المرأة فسنفرد له حديثًا خاصًا .

١ – المرأة والقيمة الإنسانية :

أول ما يقرره الإسلام ويكفله للمرأة هو قيمتها الإنسانية ، فالإعتراف بها إنسانا يعنى الإعتراف بكل الحقوق التى تقتضيها الطبيعة الإنسانية .

والإسلام فى تقديره لهذه القيمة إنما يؤكد بما يبدع مجالا للشك دورها فى البناء والمساهمة فى النشاط الإنسانى فالمرأة هى نصف المجتمع وهى بعض الرجل خلقت منه ليكمل بها وبأنس إليها فى طريق الحياة الموحش الطويل قال تعالى فى سورة النساء (الآية الأولى) ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء﴾ فالله تعالى يأمر بالتقوى ويؤكد الوحدة الإنسانية . وقال تعالى فى سورة الحجرات (الآية ١٢) ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ . وقال تعالى فى سورة الأعراف ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ . وقال تعالى فى سورة النحل (آية ٧٢) ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ .

والله عز وجل فى هذه الآيات يوضح الغاية من هذا الخلق ويبين الغرض من وجود المرأة فهى تهب الحياة للحاضر والمستقبل وهى سر الإستمرار والديمومة والقرآن بهذه الآيات أيضا ينفى ما ترسب فى العقول من أن المرأة هى سر الشر وإفساد البشرية وإنها هى التى أغوت الرجل آدم بالخطيئة . ولا يكتفى القرآن بالنفى الضمنى بل يردف بقوله تعالى ﴿وعصا آدم ربه فغوى﴾ فيفرد آدم بالمعصية ويخصه وحده بالذكر ويحمله وزر صنيعه وأنه المسئول وحده عن هذا السلوك . والإسلام بذلك يؤكد المسئولية الفردية فعلى فرض إغواء حواء لآدم فإن الواجب على آدم أن يقاوم هذا الإغواء وأن يتصدى له وتمثل هذه الحادثة أول إبتلاء للإنسان عبر رحلته فى الحياة فالإنسان دائما تتصارعه قوى الشر وقوى الخير وقد منح العقل والحرية ليكون مسئولا عن تصرفاته وسلوكه ، قال تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ . الزلزلة : ٨ .

وهذه القيمة الإنسانية لا تتعارض أبدا مع الفارق الطبيعى بين الرجل والمرأة أو الذكر والأنثى لأن هذا الفارق له دلالة خاصة فهو أولا آية من آيات الصنع الإلهى الرائع ومظهر

من مظاهر قدرة الله فى الإزدواج والتكامل والقرآن يشير إلى ذلك فى أكثر من موضع قال تعالى (سورة الليل) ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾ وقال تعالى (سورة القيامة) ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى﴾ .

وقال تعالى (سورة الذاريات) ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ ، فالإزدواج ضرورى ولازم لنظام الكون الذكر يقابل الأنثى حتى فى الجماد ففى عالم الكهرباء تقابل الشحنة الوجبة الشحنة السالبة . وما هذا الإتساق والتجارب بين عناصر الكون وتماسك أجزائه إلا بسبب الإزدواج والتكامل . ويوضح هذه الحقيقة قول الله تعالى (سورة يس) ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ . ويقول الغزالى فى تفسير قوله تعالى ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ : الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له ، هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها .

ثم إن لهذا الفرق دلالة أخرى وظيفية تفرضها ظروف الحياة وطبيعة الواقع فلا يمكن للمجتمع أن يستقيم أمره ويصلح شأنه إلا إذا كان هناك تنوع فى العمل وتوزيع فى الوظيفة ، ولكل وظيفة طبيعتها المميزة ، ولكل عمل إستعداده الخاص قال تعالى ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ وقال أيضا ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ (سورة البقرة) : ٢٨٦

فما يصلح له الرجل لا تصلح له المرأة والمقابل صحيح ، لقد أوتى الرجل بسطة فى الجسم وقوة فى البنيان لأن وظيفته تقتضى هذا وكانت المرأة دونه لأن وظيفتها تغاير وظيفته ، فالمرأة تتعرض لأعباء عديدة من حمل ورضاعة وحضانة وغيرها وهذه الأعباء تجعل من الواجب أن تكون هناك رعاية خاصة بها وعناية متوفرة لها ، وقد كان أن خفف الله تعالى عنها فى العبادات ، هذا من جانب الله تعالى ، أما من جانب الرجل فقد أوجب الله تعالى عليه كفالتها من كل وجه : بالإنفاق والرعاية والحماية لأن وظيفة الأمومة تجعلها غير قادرة – أحيانا – على العمل أو التفرغ له كما يجب .

من هنا يتضح أن طبيعة العمل وطبيعة الحياة توجب تنويع النشاط وتحديد الوظيفة فما خلق له الرجل لم تخلق له المرأة وما يؤديه الرجل يتكامل مع ما تؤديه المرأة وإن كان مغايرا له .

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل القوامة للرجل فى قوله تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ النساء : ٣٤ وإذا كان القرآن الكريم قد اعتبر هذه القوامة درجة حين قال ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ البقرة : ٢٢٨ فما ذلك إلا مراعاة للظروف وتقديرا للأعباء التى ينهض بها كل منهما فلا يمكن للمرأة أن تتحمل مسئولية الأسرة أو أن تدير شئون المنزل بمنأى عن الرجل . كذلك لا يمكن أن تكون القيادة لهما معا خاصة وإن المرأة لديها من التبعات والواجبات ما يثقل كأهلها ويوهن طاقتها فالواجب الإنسانى يحتم أن ينفرد الرجل بالقيادة وأن يتفرغ لها وأن يساهم بذلك فى التخفيف عن كاهل المرأة .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه إمرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فإنطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ شاكيا . فكان رأى الرسول الإقتصاص من زوجها فنزل قوله تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ .

فالقوامة ناشئة عما توافر للرجال من صفات القوة المتنوعة التى تتطلبها الحياة وأيضا لما تتصف به المرأة من رقة ولين يجعلها غير قادرة على قيادة الحياة الأسرية وتنفى بنت الشاطىء أن تكون حواء مخلوقة هامشية وأن تكون قد خلقت من أحد أضلع آدم وأن يكون هذا الضلع أعوج « وليس فى القرآن كله . أشارة من قريب أو بعيد إلى قصة خلق حواء من ضلع أيمن أو أيسر . بل ليس فى معجمه على الإطلاق لفظ ضلع أو ضلعين أو أضلاع فإن صح الحديث فى الترفق بالمرأة أنها من ضلع أعوج إذا قومته بالشد كسرته فهو من التعبير المجازى فى مثل الحديث رفقا بالقوارير »[1] .

وتذهب فى كلمة أخرى لها بنفس الجريدة إلى أن القوامة للرجال بموجب صفات الرجولة لا بموجب كونه ذكرا وتقول لم يقل الذكور قوامون على الإناث بل قال تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ » .

---

(١) بنت الشاطىء « الشخصية العامة للمرأة فى كتاب الإسلام » ، جريدة الأهرام الخميس ١٩٧٥/٩/٢٥ .

فالقوامة لا تعنى إنتقاصا للمرأة أو إستهانة بأمرها وإنما هى تعنى الحفاظ على التعاون والإتساق فى محيط العمل والصراع فى الحياة .

ومما يتصل بهذا موضوع الشهادة فى قوله تعالى ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهُماالأخرى﴾ (البقرة) ٢٨٢ . فمن الواضح أن هذا التفاوت لا علاقة له بالإنسانية ولا بالكرامة ولا بالأهلية وإنما كان التفاوت لأمر غير هذا ، فالمرأة بحكم رسالتها الطبيعية لا تعنى إلا بشئون بيتها ونادرا ما تشهد فى حق يتعلق بالشئون المالية ، وما كان كذلك فليس من شأنها أن تحرص على تذكره حين مشاهدته فإنها تمر به عابرة لا تلقى له بالا ، وحتى لا تضيع الحقوق كان لابد من وجود امرأتين[1] .

فموضوع الشهادة – إذا – متصل بنوعية العمل الذى يقوم به كل من الرجل والمرأة ، المرأة وظيفتها الأولى البيت وهى غير مطالبة بالكسب والعمل فهذا ما يختص به الرجل أو ما يجب أن يختص به الرجل – كما سبق أن ذكرنا والرجل وظيفته الأولى الكسب والصراع من أجل العيش . ففى ضوء ما يجب يكون حرص القرآن على الشهادة بامرأتين .

ويفسر الطبرى قوله تعالى ﴿أن تضل إحداهُما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ بأنه الذكر بعد النسيان فالضلال هنا يعنى النسيان – ويذكر تفسيرا آخر لمن قرأ « فتذكر » بأن المرأة تصير بإنضمامها للأخرى بمنزلة الذكر[2] .

ويبدو أن الله تعالى قال « تضل » ولم يقل « تنسى » إيماء لجهل المرأة بالمسائل المالية ولبعدها عن هذا المجال .

ومما يؤكد هذا أن شهادة المرأة وحدها تقبل فيما لا يطلع عليه الرجل كإثبات الولادة والبكارة والثيوبة والعيوب الجنسية لأن هذا مما يتصل بإهتمامها ورسالتها . فالأمر إذا ليس اهانة للمرأة وإنما هو حفاظ للشرائع وصياغة للحقوق .

ومن الفروق بين الرجل والمرأة الدية : تذكر كتب الفقه أن دية المرأة فى القتل الخطأ نصف دية الرجل ، أما فى القتل العمد فالقصاص للرجل والمرأة على السواء .

---

(١) مصطفى السباعى ، المرأة بين الفقه والقانون ، حلب : المكتبة العربية د – ت ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) الطبرى ، تفسير الطبرى (تحقيق محمود شاكر) جـ ٦ ، القاهرة : دار المعارف ص ٦٣ .

والسر وراء هذا التغاير لا يمت بسبب للقيمة الإنسانية ؛ وإنما هو يعنى تعويضًا ماليًا للخسارةالتى لحقت بالأسرة . وأسرة تعتمد فى كسبها على الرجل لا شك أن خسارتها فى الرجل ستكون أفدح من خسارتها فى المرأة .

ومن الفروق أيضا بين الرجل والمراة **الإختلاف أو التفاوت فى الميراث** فقد جعل الله تعالى للذكر مثل حظ الأنثيين ، والحكمة فى ذلك واضحة فى ضوء الوظيفة التى يقوم بها كل منهما فالرجل هو المسئول عن الكسب والمرأة مسئولة عن شئون بيتها ، والمرأة فى هذا رابحة فهى سوف ترث مع أنها غير مكلفة بالكسب ، فالإسلام حين جعل للرجل ضعف ما للمرأة فهو بذلك يحفظ التوازن الإقتصادى ، ويعين الرجل على مواجهة الحياة ، ويساعده فى التغلب على شدائدها .

بعد هذه الفروق الظاهرية تبقى الحقيقة الثابتة وهى تساوى المرأة والرجل فى الإنسانية وبالتالى تشاويها فى المسئولية وأمام القانون الإلهى .

هنا يتساويان فى الإيمان يقول تعالى ﴿يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف﴾ الممتحنة : ١٢ ويقول تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن﴾ . الممتحنة : ١٠ والملاحظ أن التعبير القرآنى « بجاءكم » بالتذكير لا التأنيث ولهذا دلالته على المساواة . ويقول تعالى ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ (الأحزاب : ٥٨) ويقول تعالى ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ (محمد : ١٩) والآيات كثيرة فى هذا الصدد .

وإذا كان الرجل والمرأة مطالبين بالإيمان **فهما سواء فى الجزاء** أمام القانون قال تعالى ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ..... فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ آل عمران : ١٩٥ والتعبير بحرف الجر « مَن » للتفصيل وقوله تعالى ﴿بعضكم من بعض﴾ تعليل للمساواة . ويقول تعالى ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ (غافر : ٤٠)

ويقول تعالى ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ . النساء : ١٢٤ .

ويقرر القرآن الكريم اشتراكهما فى المسئولية ، قال تعالى ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ (التوبة) : ٧١

ويجمع القرآن الكريم بينهما فى **الفضائل والأعمال** قال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ (الأحزاب) : ٣٥

وقد ورد فى أسباب نزول هذه الآية أن نساء الرسول عليه السلام أو نساء المسلمين قلن له : ذكر الله الرجال فى القرآن بخير ، وما نزل فينا شىء ، فنزلت الآية . وهذا دليل على شعور المرأة بقيمتها وانصاف الله تعالى لها .

فى الحديث الشريف يقول الرسول عليه السلام : « كلكم لآدم وآدم من تراب » وعن أم عطيه قالت : لما قدم رسول الله إلى المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ثم أرسل اليهن عمر بن الخطاب فجاء حتى قام على الباب فسلم علينا فقال : السلام عليكن ، فرددنا عليه السلام ، فقال : أنا رسول الله اليكن ، فقلنا : مرحبا برسول الله ورسول رسول الله قال : تبايعن على ألا تشركن بالله شيئا ... الآية » فقلنا : نعم فمد يده من خارج البيت ، ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال اللهم اشهد »[1] .

ويقول الرسول عليه السلام فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذى « إن النساء شقائق الرجال » .

ولم يدع القرآن الكريم موضعا يمس كرامة المرأة وقيمتها الإنسانية إلا ذكره . بل كانت هناك بعض سوره التى حملت إسمها أو صفة لها فهناك فى القرآن الكريم سورة تسمى « النساء » وأخرى تسمى « الطلاق » وثالثة تسمى « المجادلة » ورابعة تسمى

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، المجلد الثامن ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ م ، ص ٧

« الممتحنة » وخامسة تسمى « مريم » وهى كلها سور تنظر للمرأة من زوايا كرامتها المختلفة .

فسورة مريم تؤكد طهرها وقداستها ، وسورة المجادلة تؤكد آدمية المرأة وإنصاف الله تعالى لها متى كانت مظلومة وقد ورد فى سبب نزول هذه السورة أن خولة بنت ثعلبه ظاهر عنها زوجها أوس بن الصامت أى قال لها « انت على كظهر أمى » وهو نوع من أنواع الطلاق فى الجاهلية . واستعانت خولة الرسول فى ذلك فقال لها الرسول قد حرمت عليه فقالت : والله ما ذكر طلاقا ، والله قد نسخ سنن الجاهلية ، فقال لها : ما أوحى إلى فى هذا شىء ، فاغتمت لصغر أولادها وقالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى ، وقد نفضت له بطنى ، فنزل قول الله تعالى ﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله﴾ ، فالله عز وجل بمقتضى إنسانيتها أنصفها لأنها مظلومة .

وكفل لها أيضا حرية العقيدة ، وحماها من جور الكفر والشرك كما هو واضح فى سورة « الممتحنة » ، قال تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن﴾ (الممتحنة الآية ١٠) .

من خلال هذا كله يتضح تقرير الإسلام لآدمية المرأة وإنسانيتها ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الإسلام هو التشريع الفريد الذى يكفل للمرأة كرامتها وآدميتها .

غير أنه يجب ألا تفهم المساواة بالصورة المطلقة ، وألا يدفع التحمس أو الإنفعال إلى ذلك ، ولذا لا يصح القول بأن المرأة أوحى إليها كما أوحى للرجل ، وإن يستدل من قوله تعالى ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ ما يدل على المساواة المطلقة حتى فى الوحى الإلهى .

٢ – المرأة الزوجة :

الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، وبناء المجتمع القوى يعنى الإعداد السليم للأسرة . وبقدر ما تعظم الأهداف وتسمو الغايات بقدر ما يزداد الإعداد ويتكامل ولأن المجتمع الإسلامى له دور القيادة والريادة فى الأرض قال تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ فقد عنى الإسلام عناية فائقة بالأسرة فشرح كل الضمانات التى تكفل لها أداء دورها ورسالتها .

والسور التى تعرضت لأمر النساء كثيرة منها سورة البقرة والمائدة وسورة النور وسورة المجادلة وسورة الأحزاب وسورة التحريم .

غير أن سورة النساء هى اكثر السور تعرضا للمرأة فهى تعرض للإستقرار الداخلى وتوضح الأسس الكفيلة بدوام هذا الإستقرار ونشاطه . وقد تعرضت السورة للأسس الآتية :

١ – تكريم المرأة .

٢ – نظام الأسرة .

٣ – مساواة الرجل بالمرأة فى الكسب فى حدود الطاقة .

٤ – حرية المرأة فى ذاتها وأموالها .

٥ – حقوقها المالية .

٦ – نظام الزواج : المحرمات من النساء ، تخير الزوجات ، الزواج ميثاق غليظ ، قوامه الرجل على المرأة ، أصناف النساء أمام هذه القوامة[1] .

ولأن الزواج هو أداة البناء الأسرى فإن هذا يتطلب فهم الغايات منه ، يقول الغزالى عنه « فيه اراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، وفى الإستئناس بالنساء من الإستراحة ما يزيل الكرب ويروح القلب »[2] . يقول القرآن الكريم فى بيان هذه الغاية ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم : ١٢١) ويتناولها من جانب آخر بقوله تعالى ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ (النساء : ١) فالزواج وسيلة لإستمرار النسل ويقول الرسول الكريم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه وجاء .

ومن مجموع هذه النصوص يتضح أن الغاية فى الزواج ثلاث :

١ – الاشباع الجنسى .

٢ – الاشباع النفسى والعاطفى .

---

(١) محمود شلتوت ، تفسير القرآن الأجزاء العشرة الأولى ، (الطبعة الخامسة) ، بيروت : دار الشروق ١٩٧٣ م ص ١٦٩ وما بعدها .

(٢) الغزالى ، أحياء علوم الدين جـ ٢ (آداب النكاح) ط ٢ بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠ م ، ص ١١٢

٣ – دوام النسل واشباع غريزة حب البقاء .

وضمانا لتحقيق هذه الغايات فهو من الناحية الشكلية عقد يجب أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

(أ) أن ترضى به المرأة :

فلا ترغم عليه وأن يكون رضاها بالقول أو الفعل أو السكوت إذا غلبها الحياء قال الرسول عليه السلام « لا تنكح الأيم حتى نستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن . قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذنها ، قال أن تسكت » ، وقال أيضا « الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، وإذنها صمتها »[1] .

(ب) رؤية الزوج لها :

فقد ورد فى الحديث ما معناه : « إذا وقعت امرأة فى نفس أحدكم فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » والملاحظ فى هذا الحديث أن الرسول يذكر الشعور النفسى أولا وبعده النظر . فالنظر هنا يهدف الزواج وليس مقصودا لذاته . روى الحديث عن المغيرة بن شعبة .

(جـ) الخطبة :

وهى فرصة يتعرف فيها أحد الطرفين على الآخر . روى جابر أن الرسول عليه السلام قال : إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل . وقد وضح الفقهاء ضمانات هذا التعرف ، والمواضع التى يمكن النظر إليها .

ومنعا للتشاحن والضغينة ، وحتى يتم التعارف فى جو آمن قال الرسول فيما رواه أبو هريرة : لا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك .

(د) الصداق أو المهر :

وهو حق يعطى للزوجة قال تعالى ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئًا مريئًا﴾ ، (النساء : ٤) وقال تعالى ﴿وإن أردتم استبدال زوج

(١) الامام مالك ، الموطأ ، ط ٢ ، المكتبة العلمية ، ص ١٧٧

مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنا منكم ميثاقًا غليظًا﴾ . النساء : ٢٠ ، ٢١ وواضح أن لفظ الميثاق لا يرد إلا فى الأمور المغلظة . وتحديد الصداق متروك للعرف وإن كان الرسول يرغب فى التسامح فيه حيث قال « أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهرًا » .

(هـ) اشهار الزواج واعلانه :

فى جمع لأنه رابطة إجتماعية بين أسرتين .

(و) وجود شهود :

يشهدون على العقد ويؤكدون صحته .

(ز) الكفاءة :

وهى تختلف بإختلاف الأشخاص والبيئات قال الرسول ﷺ « تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

والزواج بعد هذا رابطة إنسانية روحية قبل أن تكون مجرد علاقة بل هو لباس لكلا الطرفين للزوج والزوجة قال تعالى ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ .

الحقوق الزوجية :

وبمقتضى العقد الذى ربط بين الزوجين ، وتأكيدًا للغاية الزوجية فإن الشرع قد بين وحدد حقوق كل منهما . وأهم الحقوق المشتركة بينهما حق العشرة الزوجية والمعاملة بالمعروف .

حقوق الزوج :

تتلخص حقوق الزوج فى :

(أ) الطاعة والتأديب يقول تعالى : ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ ويفسر القرآن نفس هذه الدرجة فيقول ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ .

والطاعة هى القاعدة ، والتأديب هو الاستثناء ، ووسائل التأديب متدرجة على النحو التالى : الوعظ والنصح – الهجرة فى المضجع – الضرب غير المبرح – يقول الله ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن وأهجروهن فى المضاجع ، وأضربوهن﴾ (النساء : ٣٤) ويوضح أن المعروف والطاعة هو الأصل بقوله بعد ذلك ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ .

وروى البزار عن ابن عباس أن إمرأة جاءت إلى النبى عليه السلام فقالت يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معشر النساء نخدم عليهم فما لنا من ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافها بحقه بعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله .

(ب) حفظ الزوجة لمال زوجها وعرضه . روى ابن ماجة أن النبى ﷺ – قال : ما استفاد المؤمن من تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة . إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله .

وروى ابن حيان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت .

حقوق الزوجة :

وتتلخص حقوق الزوجة فى :

(أ) العدل :

قال تعالى : ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ ، وقال أيضا ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ (النساء : ١٩) .

وحرصا من الشرع على العدل نصح الله تعالى بالاقتصار على زوجة واحدة قال تعالى : ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾ . النساء : ٣ .

(ب) حق النفقة :

هو حق ثابت بمقتضى القرآن والسنة والإجماع قال تعالى : ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ والملاحظ أن القرآن عبر « بالمولود له » ولم يعبر بلفظ « الزوج » وهو بهذا يشير لنوعية الوظيفة لكل من الزوجين ، هو عليه الإنفاق وهى عليها التربية والقيام بشئون الأسرة .

وروى أحمد وأبو داود والنسائى أن رسول ﷺ – سأله رجل : ما حق المرأة على الزوج ؟ قال : تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت » . وقال تعالى : ﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾ . (الطلاق : ٦) .

الطلاق :

قلنا أن الزواج هو امتزاج روحى ورباط قلبى ولباس يغشى الطرفين . ومع هذا فقد يحدث ما يكدر هذا الامتزاج . ويوهن هذا الرباط ، فظروف الحياة متغيرة ، وقد تتغير لتغيرها النفوس وخاصة المرأة لكثرة ما تتعرض له من متاعب وآلام ولذا يدعو القرآن الكريم إلى الصبر عليها بقوله ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ » ، (النساء : ١٩) ويقول الرسول عليه السلام : « لا يضر مؤمن مؤمنة أن ساءه منها خلق رضى منها خلقا » .

لكن إذا ما تأزمت الأمور واحتدت الحال ، وأصبحت العشرة الزوجية مستحيلة هنا يكون واحد من سبيلين : الطلاق أو تعدد الزوجات . وهما صورتان الحقيقة واحدة مؤداها أن الأسرة قد آذنت بالإنهيار .

الطلاق شر لابد منه لأنه العلاج الوحيد – أحيانا – لشر قد يكون أفدح منه خطرًا . وتحريم الطلاق بمثابة تحريم الجراحة ، لأن الجراح قد يضطر لبتر عضو من أعضاء المريض . وليس الطلاق هو الذى يحطم نظام الزواج المقدس . لكنه سوء التفاهم بين الزوجين . وهو يضع له الطلاق حدا ونهاية[1] .

(١) فتحى عثمان ، الفكر الإسلامى التطور ، القاهرة : دار القلم ، ص ١٧٩ .

يقول الرسول ﷺ – فيما رواه أبو داود والحاكم فى المستدرك « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

والطلاق لا يكون إلا بعد استنفاذ كافة السبل التى تكفل الإصلاح .

وأولاها تحكيم الحكمين :

قال تعالى : ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾ النساء : ٣٥ واشتراط أن يكون الحكم من الأهل لأنه أحرص على الرباط وأعرف ببواطن الأمور .

ثانى هذه السبل :

جعل الطلاق ثلاث مرات حتى تكون ثمة مندوحة أمام الزوج كى يراجع نفسه عله يثوب إليها ويبقى على الحياة الزوجية . قال تعالى : ﴿الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ . (البقرة : ٢٢٩) .

ثالث هذه السبل :

قضاء المطلقة مدة العدة فى بيت الزوجية قال تعالى : ﴿فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾ (الطلاق : ١) والغاية من ذلك هى فرصة أخرى أمام الرجل يحاسب فيها نفسه ويتبصر فيها حقيقة ما هو قادم عليه .

وآخر هذه السبل :

الإشهاد على الطلاق ، قال تعالى : ﴿واشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله﴾ الطلاق : ٢ ولنلحظ التغليظ فى جعل إقامة الشهادة لله حيث يكون الطلاق أمرا جسيما وخطرا عظيما .

على أن هناك قواعد عامة : نجب مراعاتها فى الطلاق منها : وقوع الطلاق فى طهر . والغرض هو درء الضرر عن الزوجة بتطويل مدة العدة . وقد ورد أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه – طلق زوجته فى الحيض . فأمره الرسول عليه السلام بمراجعتها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلقها . ومنها أن الزوج لو طلق زوجته قبل الدخول بها ولم يكن قد فرض لها مهرا فعليه أن يمتعها

حسب قدرته المالية ، قال تعالى : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾ (البقرة : ٢٣٦ فهو حق وليس سنة .

ومنها لو طلق زوجته قبل الدخول وقد فرض لها مهرا فعليه نصف المسمى قال تعالى : ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ . (البقرة : الآية ٢٣٧) .

ومنها : أن العدة تختلف باختلاف حال الزوجة فإن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها وإن كان متوفى عنها زوجها ، فعدتها أربعة أشهر وعشرا وإن بلغت سن اليأس فعدتها ثلاثة أشهر .

قال تعالى فى بيان ذلك : ﴿يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا . واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا . أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كنتن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ (الطلاق : الآيات ١ – ٦) .

بعد كل هذا يمكن القول بأن ما يوجه للإسلام من تهم بسبب الطلاق ليس مرده إلى الدين نفسه بل ذلك راجع إلى سوء استخدامه وإلى التلاعب بحدود الله ولقد حذر الله تعالى من ذلك فقد قال ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ .

تعدد الزوجات :

التعدد ظاهرة اجتماعية سابقة على الإسلام فقد كان موجودا لدى الأمم القديمة كلها تقريبا عند الأثينيين والصينيين والهنود والبابليين والأشوريين[١] والتوراة أباحته ولم تحدد العدد . وتعاليم زرادشت أباحت للفرس أن يعددوا زوجاتهم وأن يتخذوا الخطايا والخليلات وقد عدد الرومان فقد جمع الإمبراطور قيصر بين أربع ، وملك فرنسا داغوبرت جمع بين ثلاث .

أما المسيحيون فقد تحايل بعضهم على الشريعة وعدد كالامبراطور قسطنطين بل أن الامبراطور فلافيوس فانتينان سن قانونا يبيح التعدد وكان ذلك فى منتصف القرن الرابع الميلادى أباح فيه لرعايا الدولة جميعًا أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا . ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنيسة ، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جيستنيان حيث حرم التعدد على أنه لم ينجح فى تحريمه ، ولم يخضع لتحريم العدد إلا قلة من المفكرين[٢] . والمصريون كانوا يعددون فى عهد ديودور .

ويذهب جوستاف لوبون إلى أنه نظام حسن ، يرفع المستوى الأخلاقى فى الأمم التى تدين به ويزيد الأسر إرتباطا ، ويمنح المرأة إحتراما وسعادة لا تجدها فى أوربا[٣] .

وأيا كانت الآراء حول حسنه أو استهجانه فإن الواجب يملى علينا أن تلجأ إليه متى دعت الظروف لذلك . فمثلا قد يحدث أن يختل التوازن بين عدد الرجال والنساء فيزيد النساء على الرجال ، فالواجب الخلقى والإجتماعى يملى الأخذ بالتعدد درءا للمفاسد وحسما للإنحلال ، وكثيرا ما يحدث هذا فى أوقات الحروب والكوارث .

وقد يحدث أن تكون هناك حالات شخصية توجب التعدد كأن تكون الزوجة عقيما أو مريضة ، أو أن يكون لدى الزوج من الطاقة الجنسية ما لا يكتفى معها بواحدة .

فالإسلام حين أباح التعدد فهو لم يبحه إلا لضرورات معينة ومع هذا قيده بالعدل وحدده بأربع .

---

(١) جوستاف لوبون (ترجمة عادل زعتير) ، حضارة العرب ص ٤٨٢ .
(٢) أحمد الحوفى ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، ص ١٩٠ .
(٣) جوستاف لوبون (ترجمة عادل زعتير) ، حضارة العرب ص٤٨٣ .

ولا يجب أن نفهم أن العدل مستحيل على الإطلاق بين النساء كما ذهب إلى هذا البعض حيث ضموا قوله تعالى ﴿وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ إذ يمكن أن يكون المقصود بالعدل هو العدل فى الإنفاق والمعاملة أما الميل القلبى والشعور الداخلى فلا يدخل فى نطاق العدل . ولقد كان رسول الله عليه السلام متزوجًا بأكثر من واحدة ولا يعقل أن يكون غير عادل فى معاملتهن وكان يميل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها أكثر من غيرها ولا نحتج بأن هذا خاص بالرسول وهو معصوم من الخطأ فالرسول مشرع ورائد . وفى صنيعه هذا نموذج لكيفية المعاملة والمعاشرة الزوجية .

٣ – المرأة والحياة العامة :

وفى حديثنا عن المرأة والحياة العامة سنعرض لجانبين :

الأول : المرأة والعمل .

الثانى : المرأة والسياسة .

(أ) المرأة والعمل :

يقول الله تعالى ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ . (النساء : ٣٢) والعمل هو وسيلة الإكتساب ومعنى هذا أن القرآن الكريم يقرر حق المرأة فى العمل . وقد كان النساء على عهد رسول ﷺ يخرجن لقضاء حوائجهن . روى أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه قالت : كنت أنقل النوى على رأسى فلقينى رسول الله ومعه نفر من أصحابه فدعا لى ثم قال : أخ أخ ، ليحملنى خلفه . فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته ، فعرف رسول الله أنى قد استحييت فمضى . فأسماء كانت تعمل وكانت تشارك زوجها أعباءه وتبعاته . ومعروف أن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تمارس التجارة ولقد إشتغل الرسول فى تجارتها .

غير أن هناك بعض الآيات القرآنية التى توحى بغير ذلك قال تعالى : ﴿وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ (الأحزاب : ٣٣) فالأمر بالقرار يوحى بعدم الخروج للعمل . وقال تعالى ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ إفراد بعد تثنية ، خرج آدم وحواء من الجنة ولكن إنفرد آدم بالشقاء والمقصود بالشقاء هنا هو الكد والتعب من

أجل العيش والكسب وفى هذا إيماء بأن العمل هو الوظيفة الأولى للرجل أما المرأة فمقرها دارها ، فهما معًا فى الجنة كانت تتوفر لهما كل مقومات العيش والهناءة ثم خرجا من الجنة وأحدهما أضعف من الآخر وفى حاجة إلى حمايته ورعايته والحماية والرعاية تقتضى التعب والشقاء ، فكان آدم هو ذلك الشخص . كيف يمكن إذا أن نوفق بين النصوص ؟ آيات توحى بالعمل وأخرى توحى بغيره ؟

ويمكن التوفيق بين الآيات فى ضوء مرونة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان . وفى ضوء حرصه على الكرامة الإنسانية ، وفى ضوء الحماية للعرض والشرف ، وفى ضوء الطاقة الإنسانية .

فالوضع الأمثل والأسمى أن يعهد بالعمل والكسب للرجل وأن تتفرغ المرأة لشئون بيتها وأمور أسرتها ، غير أن ظروف الواقع وضرورات الحياة قد توجب غير ذلك فتملى على المرأة ألا تكتفى بدورها فى المنزل بل تشارك الزوج فى كسبه . وهذا ما كان من السيدة أسماء رضى الله عنها . وهذا ما فعلته السيدة خديجة رضى الله عنها . فالعمل قد يكون الباعث عليه الضاغط الإقتصادى وثقل مسئوليات الأسرة المادية .

الإسلام يكفل للمرأة أن تعمل حفاظا على شرفها بدلا من التردى إلى هاوية الرذيلة ، يكفل لها أن تعمل بدل أن تفقد كرامتها فتضطر للتسول مثلا أو تصير كلا وعبئا على غيرها ، يكفل للمرأة أن تعمل إذا افتقدت العائل والزوج . وقد لا يكون الباعث على العمل هو الضاغط الإقتصادى أو مثل الأعباء الأسرية بل قد يكون الباعث ضرورة اجتماعية تفرضها ظروف المجتمع وخاصة إذا كان مجتمعا ناميا يتطلب العمل المضاعف والجهد المتواصل من أجل البناء والرقى . هنا يمكن للمرأة أن تعمل وأن تساهم مع الرجل فى البناء .

وقد تكون هناك بعض الحرف والمهن التى لا يمكن أن تزاولها إلا المرأة ، هنا أيضا لا مانع من العمل .

فالعمل يجوز طالما دعت إليه الحاجة واضطرت إليه الظروف ، لكن إذا كان العمل وسيلة لتزجية الفراغ وقتل الوقت أو لتحقيق قدر من الترف يمكن الاستغناء عنه ، فإنه يغلب على الظن أن يكون غير جائز وخاصة إذا كان ذلك على حساب الدور الأول للمرأة

وهو الأسرة . فخروج المرأة للعمل وتركها لأولادها دون ما رعاية أو عناية أو أن تعهد بهم إلى خادمة لا تملك قدرا من الوعى أو الثقافة . شيء غير مستساغ .

فإذا كان ولابد من خروج المرأة ونزولها لميدان العمل فلابد من اتخاذ كافة الضمانات والسبل التى تحفظ كيان الأسرة وتصون أفرادها من التدهور والضياع ، يجب أن تتوفر دور الحضانة بالقدر الذى يستوعب الأطفال – جيل المستقبل – يجب أن تزود هذه الدور بكل ما يكفل للأطفال الجو الصحى والمناخ الطبيعى للنمو التنشئة الحسنة . وهذا طبعا من مسئولية الدولة والجماعة وليس من مسئولية الفرد فالفرد لا يقوى وحده على تحقيق كل ذلك .

يقول « ساموبل سمايلس » الإنجليزى فى هذا الشأن :

« إن النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة فى المعامل مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لأنه هاجم هيكل المنزل وقوض أركان الأسرة وفرق الروابط الاجتماعية ، فإنه بسلبه الزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم صار بنوع خاص لا نتيجة له إلا تشغيل أخلاق المرأة إذ أن وظيفة المرأة الحقيقية هى القيام بالواجبات المنزلية »[1] .

(أ) المرأة والحجاب :

على أن هناك نقطة أخرى تتصل بعمل المرأة وهى موضوع الزينة والحجاب . فقد قلنا أن عمل المرأة هو دور إضافى بالنسبة لها وأنه وليد ضرورة فكان لابد من اتخاذ الضمانات التى تكفل أداءه بالصورة الصحيحة .

وقلنا أن إحدى هذه الضمانات هو تحقيق الرعاية الأسرية بإنشاء دور الحضانة أما الضمان الثانى فهو يتصل بزى المرأة وشكلها الخارجى .

خروج المرأة للعمل يقتضى مخالطتها للرجال واتصالها بهم . والإسلام يحرص كل الحرص ويعنى كل العناية بشرف المرأة وصيانة عرضها ويقرر كل السبل التى تحمى المجتمع من التصدع الأخلاقى . والمرأة هى نواة المجتمع وهى أداة قوته كما هى معول هدمه فإذا ما حمينا المرأة حمينا المجتمع وإذا ما أهملناها أهملنا أنفسنا . ولذلك فإن القرآن الكريم يحذر

(١) مصطفى السباعى ، **المرأة بين الفقه والقانون** ، ط ٢ ، حلب ، المكتبة العربية ، ص ٢٥٢ .

من الخوض فى أعراض المؤمنات حيث يقول ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ (النور : ٢٣) ، ويقول تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ (النور : ٤ ، ٥) .

ويحذر من الزنا فيقول ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ (النور : ٢ ، ٣) .

والملاحظ أن الله تعالى بدأ بالزانية ، فالزنا متوقع من المرأة . يقول الرسول عليه السلام « ما تركت فتنة بعدى أشد من فتنة النساء على الرجال » .

وهكذا نلحظ من الآيات حرص القرآن الكريم على شرف المرأة وكذا الحديث الشريف والإسلام لم يقرر الحرص فقط بل أغلق كل المنافذ وسد كل الطرق التى تهدد طرق المرأة وعرضها قال تعالى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ (النور : ٢٠ ، ٢١) .

ويقول الله تعالى فى آية أخرى ﴿يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (الأحزاب : ٣٣-٣٢) .

ونلحظ فى هذه الآية أن النهى « ولا تبرجن » جاء بعد الأمر « وقرن » وهذا ايحاء بأن خروج المرأة ومغادرتها لدارها يجب ألا يكون فى تبرج .

آية أخرى تقول : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ (الأحزاب : ٥٣) .

آية أخرى تقول : ﴿يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما﴾ (الأحزاب : ٥٩) .

فمن مجموع النصوص القرآنية يتضح أن الإسلام يحرص على عرض المرأة وكرامتها ويضع كافة الوسائل الكفيلة بذلك ، فينهى عن كل ما يثير ، الضرب بالأرجل بقصد إظهار الزينة والتكسر فى القول – كشف الجسم وإبراز مفاتنه « يدنين عليهم من جلابيبهن . النظرة المريبة » .. يغضضن من أبصارهن » ، الاختلاط المطلق حتى فيما لا يتصل بالعمل « فاسألوهن من وراء حجاب » .

والإسلام لم يكن ليفرض على المرأة ما لا تطيق فقد قرر لها العمل وأعطاه إياها فطبيعى أن يقدر ما يترتب عليه من إختلاط ومشاركة فقال تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ ويفسر العلماء ما ظهر بالوجه والكفين فهما مناط العمل فالإسلام لا يضيق ولا يتزمت وإنما كل هذا بهدف ، درء الفتنة ، ولذا أباح للعجائز ما لم يبحه للشابات قال تعالى ﴿والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن﴾ (النور : ٦٠) . ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت أسماء بنت أبى بكر على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فقال لها : يا أسماء ان المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » .

أما تحديد الزى وكيفيته فيترك للعرف والظروف ولكن فى ضوء المبدأ العام الذى سنه الإسلام وهو الحفاظ على العرض .

ونحن فى كل هذا نقرر ما بينه القرآن الكريم وأوضحته السنة النبوية ونترك ما نراه اليوم مما يصاحب خروج المرأة ونزولها للعمل ، لرأى غيرنا .

(ب) المرأة والسياسة :

هذا هو الجانب الآخر من جانبى الحياة العامة . وقد اختلف الفقهاء والمفكرون فيه وفقا لاختلاف اتجاهاتهم وثقافتهم ، فمنهم من ينكر عليها هذا الحق ومنهم من يؤيده ، والذين ينكرون يستندون إلى حديث الرسول عليه السلام حينما ولى أهل فارس عليهم بنت كسرى فقال الرسول « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة » .

والذين يؤيدون يستندون إلى ما أقره الشرع ودعمته الوقائع فهم يقولون إن الإسلام أباح للمرأة أن تشهد أماكن العبادة ، وأن تحضر صلاة العيدين والجمعة والأوقات المفروضة فى المسجد وأن تكون ناضرة ووصية ، وأنها تشهد بالخير ودعوة المؤمنين . فهل يجوز بعد هذا القول بأن الدين يمنع المرأة من استعمال حقها فى الانتخاب والنهيابة عن الأمة[1]

ويقولون أيضا أن المرأة ساهمت فى تأسيس الدولة الإسلامية فاشتركت فى غزوات الرسول تسقى المقاتلين وتمرض الجرحى ، بلقاتلت أحيانا وحملت السلاح فضربت بالسيف ورمت بالقوس . ومن ذلك ما روى عن أن رسول الله عليه السلام حين غزا بدرا قالت له أم ورقه تأذن لى فأخرج معك : أداوى جرحاكم وأمرض مرضاكم لعل الله يهدى لى شهادة ؟ فقال الرسول : إن الله مهديك شهادة » وإذن لها بالخروج معه ، ووقفت أم عمارة مع زوجها وابنيها فى ساحة القتال فى أحد فخرجت معهم بشن لها فى أول النهار تريد أن تسقى الجرحى فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسنا وجرحت اثنى عشر جرحا .

وعندما أراد الرسول الخروج إلى خيبر جاءته أم سنان الأسلمية بايعت بعد الهجرة فقالت : يا رسول الله أخرج معك فى وجهك هذا أخرز السقاء ، وأداوى المريض والجريح إن كانت جراح وأبصر الرجل ؟ فقال رسول الله : أخرجى على بركة الله ، فإن لك صواحب قد كلمتى واذنت لهم من قومك وغيرهم فإن شئت خرجت مع قومك

(١) درية شفيق ، المرأة المصرية ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٤١م ص٤٨.

وان شئت فمعنا ، فقالت له : معك ، قال : تكونين مع أم سلمة زوجتى ، قالت : فكنت معها .

وشهدت أم سليم يوم حنين ، وكانت قد اتخذت خنجرًا . قيل : يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر فقالت : يا رسول الله اتخذه إن دنا منى أحد من المشركين بقرت به بطنه »[1] .

ولم يقف دور المرأة عند الجهاد بل خرجت تبدى رأيها فى سياسة الدولة ، فالسيدة عائشة رضى الله عنها خرجت لتعرب عن رأيها فى سياسة على بن أبى طالب وهى تتمسك بقوله تعالى ﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ ، (النساء : ١١٤) وتقول : ننهض فى الإصلاح من أمر الله عز وجل وأمر رسول الله عليه السلام – الصغير والكبير والذكر والأنثى . فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره[2] .

وأيا كانت الأسباب والدوافع وراء خروج السيدة عائشة رضى الله عنها فهذا كان يعنى اقرارًا لحق المرأة فى إبداء رأيها فى سياسة الدولة . ولم تكن السيدة عائشة هى المثل الوحيد لذلك ، بل كانت هناك أمثلة أخرى منها حادثة المرأة التى عارضت عمر بن الخطاب – أمام المسلمين – فى المسجد عندما أراد أن يحدد المهر ، ولم يكن من عمر إلا أن يقر رأيها ويعدل عن رأيه أمام الجمع ويقول : أخطأ عمر وأصابت إمرأة .

ولا يرتضى المنكرون هذه الأمثلة ويرون فيها أحداثا فردية . وحالات نادرة لا يصح أن تتخذ كقاعدة .

ويقف فريق آخر موقفا وسطا فيرى أن ثمة نوعين من الولاية : ولاية عامة وولاية خاصة ، أما الولاية الخاصة ، كالولاية على الصغار ، والمال والنظارة فجائزة للمرأة وأما الولاية العامة ، وهى ولاية سن القوانين والإشراف على تنفيذها ، فقد قصرتها الشريعة الإسلامية على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة . وقد جرى التطبيق على هذا من فجر الإسلام إلى اليوم .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ ٨ ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ م ص ٢٩٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك . (جـ ٤) القاهرة : مطبعة الاستقامة ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٩ م ص١٧٤ .

وقد كان فى نساء الصدر الأول مثقفات فضليات ، ومع أن الدواعى لاشتراك المرأة مع الرجال فى الشئون العامة كانت متوافرة ، فلم يطلب من المرأة أن تشترك فى شىء من تلك الولايات ولم يطلب منها هذا الاشتراك ، لأن المرأة بحكم أنوثتها عرضة للانحراف عن مقتضى الحكمة والاعتدال فى الحكم ، ذلك ما قررته لجنة الفتوى بالأزهر[1] .

لعلنا بعد هذا نكون قد اقتربنا من ملامح الصورة التى رسمها الإسلام وللمرأة فى جوانبها المختلفة وأبعادها المتكاملة لنرى بعد ذلك مكان التعليم من هذه الصورة قربًا أو بعدًا فى ضوء الظروف الاجتماعية التى أحاطت بذلك ، ولنرى أن التجديد فى الفكر الإسلامى –فيما يتصل بالمرأة – كان يهدف إلى الإقتراب من هذه الصورة وأن التعليم كان السبيل لبلوغ هذا الهدف .

تعليم المرأة :

لم يعد فى مقدور أحد أن يتشكك فى أهمية التعليم أو التربية فهو أداة التغيير والبناء معا على المستوى الفردى والجماعى ، أنه يعنى بالفرد فى جوانبه المختلفة كما أنه يصل بالمجتمع إلى غاياتها التى ينشدها .

ولأن المرأة هى دعامة الأسرة فقد كان طبيعيًا أن توكل مسئولية اعدادها فى جوانبها المختلفة إلى التعليم فيعد : المرأة الإنسان ، المرأة الزوجة ، المرأة فى الحياة العامة ، تلك هى المجالات التى يطرقها التعليم .

ومن الواضح أن لكل تشريع جانبه العقيدى السابق له ، والإيمان هو هذا الجانب فى الإسلام ، بغيره لا يكون الإسلام تشريعا ، قال تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ ، (الحجرات : ١٤) فالإيمان هو روح الإسلام وجوهره .

لذا كان لابد أن تكون دعوة الإيمان موجهة للرجل والمرأة على السواء . قال تعالى ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ ، وقال تعالى ﴿ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات﴾ ، (الأحزاب : ٣٥) وقد ضرب الله تعالى المثل بالمرأة فى الإيمان والكفر قال تعالى ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح واسرأة

---

(١) فتحى عثمان ، **الفكر الإسلامى والتطور** ، القاهرة : دار القلم ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النـار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين﴾ (التحريم : ١٠ ، ١١) .

والإيمان الصادق هو الإيمان القائم على العلم والتأمل ، وقد نوه الإسلام كثيرًا بالعلم والعلماء ، ويكفى أنهم أهل خشيته قال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ . وفرق بين العلمـاء وبين غيرهـم فقـال تعـالى ﴿قل هل يستوى الذيـن يعلمـون والذيـن لا يعلمون﴾ (الزمر : ٩) بل جعلهم أصحاب العقول قال تعالى ﴿ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ...﴾ (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) ، وعد الكفار كالبهائم قال تعالى ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ (الأعراف : ١٧٩) ، والرسول الكريم يقول العلماء ورثة الأنبياء ، وقد جعل الرسول فدية الأسير فى غزوة بدر أن يقوم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين .

وعلى هذا فقد كان التعليم فريضة . روى البيهقى أن الرسول عليه السلام قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد اشتهر هذا الحديث بزيادة لفظ ومسلمة ، وقد وردت هذه الزيادة فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى .

على أن هذه الزيادة وان كانت لم ترد فى الرواية فقد اتفق العلماء على أن كل ما يطلب من الرجل تعلمه يطلب من المرأة كذلك .

وقد روى البخارى أن النساء قلن للنبى عليه السلام : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك ، فعين لهن يوما يلقاهن فيه .

وقال الرسول عليه السلام – عن السيدة عائشة – رضى الله عنها خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء وقد ورد أنها روت ألف حديث عن الرسول ، ويقول الرسول أيضا : ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ٥ .

وقد اختلف العلماء والمفكرون فى المقصود بالعلم الذى هو فريضة : فأهل السنة والناس يقولون أن المقصود بالعلم هو العلم بالدين . أما الغزالى فقد قسم العلم قسمين : جعل أحدهما فرض عين وخصه بالعلوم الدينية والخلقية ، وثانيهما جعله فرض كفاية وخصه بغير ما سبق ، وقد اختلف الناس فى العلم الذى هو فرض إلى أكثر من عشرين فرقة .

ومن الآراء الحديثة التى أوردها الأهوانى رأى خليل طوطح فقد ذكر الأخير أن التعليم كان يرمى إلى أغراض أربعة : دينى ، اجتماعى ، تلذذ عقلى ، مادى[١] .

ويمكن القول بأن التعليم يشمل كل هذا فإذا كان التعليم طريقًا للإيمان فهو أيضًا طريق للعمل وسبيل للكسب ولا يعارض أبدًا بين هذا وذلك فالإنسان إذا كان يجب عليه أن يفكر ، فإنه يجب أولا أن تتوفر له سبل الحياة الكريمة ، والتعليم هو الذى يعد الفرد لمهنته معينة توفر له كرامته وتحقق له ذاتيته[٢] . وقد ذكر ابن سينا فى رسالته فى السياسة : إذا فرغ الصبى من تعلم حفظ القرآن ، وحفظ أصول اللغة ، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه بعد أن يعلم مدبر الصبى أن ليس كل صناعة يرومها ممكنة له مواتية ، وابن خلدون فى المقدمة قد عقد فصولا عديدة للحرف المختلفة كالفلاحة ، والبناء ، والحياكة ، والطب ، والتوليد ، والغناء . وجعل الكتابة والحساب والخط ضمن هذه الصنائع[٣] .

ومع اختلاف الآراء حول نوع التعليم الذى هو فريضة فقد اتفق الجميع على تعلم المرأة لأمور دينها ، وما يصلح به أمرها حتى يكون إيمانها راسخًا لا يتزعزع وسلوكها صائبا لا يضل .

تعليم المرأة بين تيارين :

فيما عدا التعليم الدينى فقد توزع تعليم المرأة تياران : أحدهما معارض والآخر مؤيد .

---

(١) أحمد فؤاد الأهوانى ، التربية فى الإسلام ، القاهرة : دار المعارف ١٩٦٨ م ص ٠٤ ، ١٠٨ .
(٢) فاخر عاقل ، معالم التربية ، بيروت : دار العلم للملايين (ط / ١٩٦٨ م ، ص ٧ .
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الشعب .

(أ) التيار المعارض :

وقد استند أربابه إلى بعض الأقوال المنسوبة لكبار الصحابة ومن هذه الأقوال ما روى عن عائشة رضى الله عنها – حيث قالت « لا تعلموهن فن الكتابة ، علموهن الغزل وسورة النورة »[١] . كذلك أيضا ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه –قال فى حق النساء « جنبوهن الكتابة ، ولا تسكنوهن الغرف واستعينوا عليهن « بلا » فان نعم تضربهن فى المسألة » . كذلك أيضًا أن عليا رضى الله عنه – قال لرجل يعلم امرأة الكتابة « لا تزد الشر شرًا » كما روى أنه قال فى شأن امرأة تتعلم الكتابة « أفعى تسقى سما » .

لذا لم يكن عجبا أن يتأثر شاعر بهذه الأقوال الشائعة فيقول الشاعر البسامى « ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة »[٢] .

ومن الذين يمثلون هذا التيار المعارض الجاحظ – القابس – الغزالى .

الجاحظ : (توفى ٢٥٥ هـ) كتب فى كتابه البيان والتبيين « وكان يقال لا تعلموا بناتكم الكتاب ولا تروهن الشعر ، وعلموهن القرآن ، ومن القرآن سورة النور »[٣] .

القابس : (تنى ٤٠٣ هـ) يقول فى تعليم الإناث « وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن أو من صالحها ، فأما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبهه فهو مخوف عليها ، وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه ، ومؤمن عليها من فتنته وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها . ولما أذن النبى عليه السلام للنساء فى شهود العيد أمرهن أن يخرجن العواتق ذوات الخدور ، وأمر الحائض أن تعتزل مصلى الناس وقال : يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، مثل هذا يقبل فى تعليمهن الخير الذى يؤمن عليهن فيه ، وما^ آخيف عليهن منه فصرفهن عنه أفضل لهن . وأوجب على متولى أمرهن . فافهم كما بينت لك[٤]

---

(١) صالح عبد العزيز ، تطور النظرية التربوية ، ص ١٦٦ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ١ز القاهرة : المطبعة الأميرية ١٣٣١ هـ – ١٩١٣ م ص٦٤ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين (تحقيق حسن السندوبى) جـ الطبعة الثالثة القاهرة : مطبعة الاستقامة ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م ص ٨٣ .

(٤) أحمد فؤاد الأهوانى ، التربية فى الإسلام ، القاهرة : دار المعارف ١٩٦٨ م ص ٢٩٣ .

الغزالى : (توفى ٥٠٥ هـ) وهو يذكر أن تعليم المرأة الخط والشعر يفسد أخلاقها ويكفى أن تتعلم من القرآن سورة النور فقط . وذكر فى آداب المرأة فقال « فالقول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، لازمة لغزلها ، قليلة الكلام لجيرانها وألا تدخل عليهم الا فى حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلها فى غيبته وحضرته وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، فلا تخونه فى نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت فمتخفية فى هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق محترزة من أن يسمع صوتها أو يعرف شخصها[1] .

وواضح من هذا النص المقتبس كثرة القيود التى رأى فيها الغزالى ضمانا للأدب وحفاظا للعرض فهو يلزمها بالمكث فى البيت وعدم الخروج ، وعدم الاحتكاك بالجيران وكثرة الاتصال بهم . كما يلزمها بعدم الزينة أو التبرج لو خرجت بل يوجب عليها أن تخرج فى هيئة رثه « حتى لا تحدث فتنة أو تثير نزوة ، ويوجب عليها أن تتجنب الطرقات الآهلة بالمارة والأسواق . انه بهذا يرفض الاختلاط حتى فى الأماكن العامة ، ويرفض ما تعيشه المرأة اليوم فهى تخرج للعمل وتسير فى الطرقات وترتاد الأسواق ، وتخالط الرجال وتراهم ويرونها وتأخذ بضروب الزينة وتتفنن فيها ، وتطالب بأن تغشى كل ميدان يغشاه الرجل مادامت مساوية له .

وإذا كان قد قال « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » – راويا لهذا الحديث عن الرسول ﷺ – فإنه فسر العلم بالعلم الدينى الذى يحفظ على المرأة دينها وإيمانها ، والذى يدفعها إلى طاعة الله وتقواه .

وهذه الآراء التى اتفقت على عدم تعليم المرأة إلا لأمور دينها لا يمكن فهمها والوقوف على دواعيها – خاصة وأنها تبدولنا نحن أبناء هذا العصر غريبة – إلا إذا عرفنا الخلفية الثقافية التى صدرت عنها واستندت إليها خاصة فى العصر العباسى ، ففى هذا العصر بلغت الدولة العربية أقصى اتساع لها وضمت تحت لوائها العديد من الأجناس البشرية ذوى الثقافات المختلفة والحضارات المتعددة ، ونتيجة لتدفق المال على خزائن الدولة شيدت القصور وساد الترف وتعددت سبل اللهو والمجون وكثرت مجالس الخمر والغناء وانتشر الأباحيون والمعربدون . هذا فوق ما اتصف به العصر من روح التسامح والحرية الفكرية

(١) الغزالى ، احياء علوم الدين جـ ٢ ص ٣٨ .

التى أدت لظهور العديد من الملل والنحل والفلسفات والآراء المتصارعة التى غطت السياسة وغير السياسة ، فكانت الشعوبية وكانت الشيعة وكان الخوارج وكان المعتزلة وكان المرجئة وغير هؤلاء . وقد غذى هذا تلك الحركة النشطة حركة الترجمة والنقل من التراث اليونانى والفارسى وغيرهما من الحضارات القديمة إلى الفكر العربى مما كان له أثره فى العقلية العربية وعمل ساهم بشكل واضح وفعال فى بناء الحضارة العربية وتقدم الأمة العربية .

وفى إطار هذه الحياة كانت المرأة التى تغشى الحياة العامة هى الجارية والأمة فقد غشيت مجالس الشرب والطرب واستطاعت من خلال ذلك أن تتسلل إلى قصور الخلفاء والأمراء كوصيفة أو سرية ، فشاركت فى الحكم وأمور السياسة بشكل خفى ، وقد نشأ عن هذا أن الحرائر وهن قرائن الرجال أصبحن مقصيات عن المجتمع ومبعدات عن وجوه نشاطه أجنبيات عن أحداثه وحوادثه ، يكاد المجتمع لا يقيم لهن وزنا ، ولا يسمع لهن حسا ، بينما أصبح الإماء يلعبن الدور الأساسى فيه ويمثلن العنصر النسائى به ، وهو وضع معكوس لا شك أنتجته الرغبة فى تأمين شرعية النسل عندما انحطت الأخلاق الجنسية[1] .

هذه الأوضاع الإجتماعية هى التى عجلت بتحطيم الإطار الكريم الذى صنعه الإسلام للمرأة ، وهى التى أدت إلى تشويه الصورة الحقيقية لها وإخفاء معالمها تحت ركام من الجمود ظل يتكاثر ويتجمع حتى ناءت بحمله فخفت صوتها ووهنت قوتها حتى صارت إلى ما صارت إليه وعلى النحو الذى سنراه فى العصر العثمانى .

وكان الحجاب هو الضمان الوحيد لحفاظ المرأة على كيانها . وقد ساعد على الأخذ به ذيوع الثقافة اليونانية ، وغلبة التقاليد الفارسية وإنتشار الرق . وقد عزز هذا ما نادى به الفقهاء والمفسرون ومن ذلك ما قاله السرخسى بصدد النفقة المستحقة للمرأة « وإن كانت الخادم تخرج فلها الخف أو المكعب بحسب ما يكفيها ، أما المرأة فمأمورة بالقرار فى البيت ممنوعة من الخروج فلا تستوجب الخف والمكعب على الزوج »[2] .

---

(١) محمود سلام زناتى ، إختلاط الجنسين عند العرب ، القاهرة : دار الجامعات المصرية ١٩٥٩م ص ١٠٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٩ .

وقد ظل مفهوم الحجاب يضيق ويتحدد حتى صار العائق الذى حال بين المرأة وبين تعليمها .

(ب) التيار المؤيد :

ومع قوة هذا التيار الذى ينكر حق المرأة فى التعليم فقد كان هناك التيار الآخر الذى يقرر حق المرأة فى التعليم ويدعو إليه . ومن أصحاب هذا الإتجاه :

ابن رشد : (توفى ٥٩٥هـ) يرى هذا المفكر الإسلامى العظيم أنه يجب على النساء أن يقمن بخدمة المجتمع والدولة قيام الرجال ويلاحظ بمنتهى سداد الرأى أن الكثير من فقر عصره وشقائه ، يرجع إلى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف لمجرد متاع فإنه يمكن أن توجه إليه جميع المطاعن بدلا من أن يمكنها من المشاركة فى إنتاج الثروة المادية والعملية وفى حفظها[1] .

نماذج نسائية :

على أن الواقع التاريخى ليحفظ لنا العديد من النماذج النسائية التى ساهمت فى كل الدراسات والتى أكدت وجود هذا التيار المناهض لسابقه .

ففى الدراسات الدينية : نبغت نفيسة بنت الحسن بن على بن زيد بن على ، وكانت راوية محدثة من خيرة المحدثات فى عصرها ، وكان يجلس فى حلقاتها مشاهير العلماء والمجتهدين ، والشيخة « شهدة » وكانت تحاضر الجماهير فى مسجد بغداد ، ويذكر الخطيب البغدادى أنه قرأ صحيح البخارى على « كريمة بنت أحمد المروزى » .

وفى الدراسات الأدبية : نبغت زوجة الفرزدق الشاعر الأموى المعروف ، وكان يحتكم لها شعراء العصر وأدباؤه ، كما نبغت رابعة العدوية ، وحمدة بنت زياد المؤدب وأختها زينب . وللسيوطى مؤلف بعنوان « نزهة الجلساء فى اشعار النساء » وهو يحوى تراجم سبع وثلاثين شاعرة .

وفى الموسيقى والغناء : نبغت الكثيرات ومنهن « دنانير » وعليه بنت المهدى « أخت هارون الرشيد وخديجة بنت الخليفة المأمون .

---

(١) ت . ج . دى بور (ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده) تاريخ الفلسفة فى الإسلام . القاهرة : لجنة التأليف والنشر ١٩٣٨م ص ٢٦٥ .

وفى الطب : نبغت زينب طيبة بنى أود وأم الحسن بنت القاضى ، وأخت الجنيد بن زهر وابنتها وغيرهن[١] .

كل هذا يؤكد حق المرأة فى التعليم وارتيادها لمجالات العلم المختلفة .

وبعد : فقد عرضنا لهذين التيارين المتصارعين ، التيار الذى يعارض تعليم المرأة ويناهضه والتيار الذى يقر هذا الحق ويدعو إليه . ويمكن أن نستجلى من وراء هذا الصراع فكرة هامة هى مدى علاقة الفكر الإسلامى بتربية المرأة . ذلك أنه عندما ينشط هذا الفكر ويقوى فإنه ينشط معه بالضرورة تعليم المرأة ويزدهر . وقد بيّن التاريخ لنا هذه الحقيقة ففى فترة ما بين ظهور الإسلام والقرن الثالث الهجرى كانت الروح الدينية قوية ، وكان الفكر الإسلامى نشيطًا ناهضًا فأمكن للمرأة أن تصل إلى أقصى درجات العلم والثقافة ، وفيما بعد هذه الفترة استسلم المجتمع الإسلامى للمنازعات السياسية واستشرى الفساد والمجون وعدم الإستقرار المادى والسياسى والإجتماعى فانعكس كل هذا على المرأة فضرب عليها الحجاب وحيل بينها وبين التعليم إلا فى القليل النادر[٢] .

وهكذا فتعليم المرأة مرتبط بالظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية أو بمعنى آخر مرتبط بالإطار الثقافى للمجتمع فتعليم المرأة جزء من نشاط المجتمع وخيط فى نسيج متكامل ، وإذا كان الإسلام قد كفل للمرأة تلك المكانة الكريمة ، وكفل لها كل الحقوق وأهمها حق التعليم فإن الظروف الثقافية التى توالت بعد عصر القوة الأول قد بعدت به عن مبادىء الإسلام حيث كان الإستبداد والطبقية والجهل والإنحلال فطبيعى فى ضوء هذا أن تتأثر المرأة بالظروف المحيطة بها وأن تخضع لقوى الكبت والظلم وأن تستسلم لقيود الجهل والتخلف . وهذا ما سوف نراه فى الفصل الثانى .

---

(١) أحمد شلبى ، تاريخ التربية الإسلامية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٢) أسماء فهمى ، مبادىء التربية الإسلامية – القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧م ص ٤٥ وما بعدها .

مكانة المرأة

بعد أن عرضنا لمكانة المرأة من المنظور الإسلامى ودورها المهم فى بناء المجتمع تعرض فيها لمكانة المرأة ومحدداتها فى ضوء الدراسات الإجتماعية الحديثة .

تعريف المكانة ومحدداتها :

إختلف علماء الإجتماع حول تحديد مفهوم المكانة Statusفكانت تعرف قديما على إنها : مصطلح قانونى يعنى مجموع القدرات القانونية للفرد أى قدرته على تنفيذ الحقوق القانونية والإلتزامات لنفسه وللآخرين[١] .

ثم تطور مفهوم المكانة على مر العصور طبقا للظروف التاريخية التى مرت بها الدول المختلفة . فكان معيار تحديد المكانة فى المجتمعات اليونانية هو عراقة الأصل ، بينما كانت الطبقة الإجتماعية هى المعيار فى الدستور الرومانى . كما اختلف مفهوم المكانة – أيضا – فى النظام الإقطاعى عنه فى الأنظمة الديمقراطية[٢] .

أما فى علم الإجتماع الحديث فيعنى مفهوم المكانة – كما يعرفها لينتون – مجموعة من الحقوق والواجبات ، ويمثل الدور الجانب الديناميكى للمكانة . فعندما يؤدى الفرد الحقوق والواجبات الخاصة بمكانة معينة يكون بذلك مؤديًا دورًا . ومن هنا لا يمكن الفصل بين المكانة والدور ، والفرق بينهما أكاديمى فقط[٣] .

ويذهب "Baldridge" إلى إن المكانة والدور هما مفتاح الربط بين الفرد ومؤسسات المجتمع الكبرى . وعلى ذلك فالمكانة والدور يكونان البناء الأساسى للسلوك الإجتماعى لأنهما يربطان الأفراد بالنظام الإجتماعى[٤] .

---

(١) Kolb , J . G . W . , A Dictionary of the Social Sciences , Glencoe , 1964 , pp . 692 .

(٢) Seligan , E . R . A . , Encyclopedia of the Social Sciences , Vol . 13 , New York , pp . 313-374 .

(٣) Linton , R . , The Study of Man-New York 1936 pp . 113-114 .

(٤) Batdridge , J . V . , Sociology , New York , Appleton Century Co . 1945 , p . 77 .

ويفرق « لينتون » بين المكانات الممنوحة Ascribedوالمكانات المكتسبة Achieved ، ويقصد بالمكانات الممنوحة تلك التى ليس للفرد دخل أو جهد فى شغلها ، مثل تلك المكانات المتعلقة بالنوع والسن والقرابة وما إلى ذلك . بينما يقصد بمفهوم المكانات المكتسبة تلك المكانات التى يمكن للفرد شغلها بناء على جهوده الشخصية وقد رأته والفرص المتاحة فى البناء الإجتماعى ، مثل المكانات التعليمية والمهنية والقيادية وما إلى ذلك[١] .

يتصل « الفرد » – كوجود حقيقى – « بالبناء الإجتماعى » ، وهو مفهوم تجريدى ، عن طريق مجموعة المكانات التى يشغلها Status-set الفرد ، فلكل فرد مكانة واحدة ، ولكنه يشغل عدة مكانات فى عدة « جماعات » متنوعة ، ولكل جماعة بناؤها الإجتماعى المحدد . يشغل الفرد عدة مكانات : بعضها متوقف على سنه وعلى نوعه ، ثم هو ابن فى بناء أسرة وهو متزوج ، أى دخل فى علاقات نسب مع عائلة أخرى وهكذا . ولكل مكانة من المكانات المذكورة حقوق وواجبات تتحكم فى علاقاته مع غيره من الأفراد المتفاعلين معه . كما إن الفرد يشغل عدة مكانات مكتسبة : فهو عضو (طالب) فى كلية معينة أو عامل فى مؤسسة ، أو عضو فى ناد أو تنظيم سياسى ، وغير ذلك من المكانات التى يشغلها بناء على قدراته وتحصيله وميوله . وتسمى المكانات التى يشغلها فرد معين فى زمن محدد « مجموعة المكانات » التى يشغلها هذا الفرد . وعندما يدخل الفرد فى تفاعل مع فرد آخر ، فإنه يدخل التفاعل بشريحة فقط من مجموعة المكانات التى يشغلها ، متوافقا مع الحقوق والواجبات التى تتحكم فى التوقعات التى ينتظرها منه الأخرون شاغلو المكانات الأخرى فى نفس البناء[٢] .

وهكذا يدخل الفرد فى بناء ويخرج منه ليتفاعل فى آخر ، متوافقا فى كل مع الحقوق والواجبات لكل مكانة من مجموعة المكانات التى يشغلها .

وبعد عرضنا السابق لمفهوم المكانة ، نحاول أن نقف على مفهوم « الدور الإجتماعى Social Role ». فيعرف « لينتون » الدور الإجتماعى بأنه « مجموعة الأنماط الثقافية المرتبطة بمكانة محددة ، المتضمنة الإتجاهات والقيم والسلوك الذى يضعه المجتمع لأى

---

(١) . Linton . R . The Cultural Background of Personality . New York , p . 77

(٢) كمال سعيد ، تأثير التنشئة الإجتماعية على أداء المرأة لدورها ، المجلة الاجتماعية القومية ، مجلد ١٤ ، عدد ١–٣ ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

فرد يشغل تلك المكانة . وقد يشمل المفهوم أيضا التوقعات السلوكية المشروعة التى ينتظرها الأفراد شاغلوا المكانات المتفاعلة مع نفس النسق »[١] . ويضيف « ميرتون » إلى ما سبق : إن الفرد الشاغل لمكانة معينة يؤدى عدة أدوار "Role-set" تتحدد بعلاقته مع الأفراد شاغلى المكانات الأخرى عندما يتفاعل معهم فى إطار التوقعات السلوكية المنتظرة منه[٢] . فالدور الإجتماعى إذن هو عبارة عن مجموعة التوقعات السلوكية المتعلقة بالفرد الشاغل لمكانة محددة .

العوامل المحددة للمكانة :

يقسم مصطفى الخشاب العوامل المحددة لمكانة الفرد إلى[٣] :

أولا : عوامل سلبية : لا دخل للفرد فيها وأهمها :

السن : وهو بلا شك يضفى على الفرد مركزًا إجتماعيًا . وقديما كانت المجتمعات الأولية تقدس شيوخها وترفعهم إلى مرتبة الألهة . وفى المجتمع الحديث المعقد تتغير حقوق الفرد وواجباته تبعا لتغير سنه .

الجنس : يؤثر الجنس تأثيرًا كبيرًا فى الوضع الإجتماعى للفرد . فالإناث مثلا محرومات من ممارسة بعض مظاهر الحرية وبعض وجوه النشاط الإجتماعى ولسن أحرارًا فى تصرفاتهن . وفى المجتمعات المتخلفة لا تزال البنت تعامل من الناحية الإجتماعية معاملة دون معاملة الذكور ، ويقع على كاهلها العبء الأكبر من الأعمال الثقيلة التى يأنف الولد القيام بها . وفى بريطانيا – حتى الآن – لا تزال النساء غير جديرات بعضوية سوق الأوراق المالية[٤] .

الصل (العنصر) Race: ويلاحظ ذلك فى كثير من الدول ذات البنيان الإجتماعى غير المتجانس وغير المتكامل . ومن ثم ظهرت فكرة « التفوق العنصرى » وسيادة طائفة باسم « الجنس » على غيرها من طوائف المجتمع . وهذه الظاهرة ملحوظة بوضوح تام

---

(١) Linton , R . , The Cultural Background of Personality , opcit , pp . 77-78 .

(٢) كمال سعيد ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(٣) مصطفى الخشاب ، علم الإجتماع ومدارسه ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٢ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٤) Wilkins , E , J . , An Introduction to Sociology , London . Macdonald , 1970 , p . 95 .

فى كل المجتمعات التى تعانى من « المشكلة العنصرية » فنجدها فى أمريكا ، وفى جنوب أفريقيا مثلا .

الحوادث الطبيعية : ومبلغ إنعكاسها فى الأوضاع الإجتماعية : وذلك مثل اليتم والترمل والعجز والشيخوخة وما إليها . فالملاحظ فى مجتمعاتنا الحديثة إرتباط هذه الظواهر الطبيعية بتشريعات وقوانين إجتماعية ، وأصبح لها اعتبارها فى تحديد الحقوق والواجبات الإجتماعية . ومن ثم كان لها أثر ظاهر فى تعيين الوضع الإجتماعى للأفراد المتأثرين بها .

ثانيا : عوامل إيجابية من عمل المجتمع (وتدخل الفرد) وأهمها :

القدرات الخاصة : بعض الأفراد مزودون بقدرات ومواهب ذاتية يستطيعون بفضلها الوصول إلى مراكز إجتماعية معينة لا سيما إذا كان لديهم الإستعداد للإنتفاع بها واستغلالها وتقدير المواقف والمناسبات الإجتماعية التى يتيحها المجتمع لمثل هذا الإستغلال . وهذا يدلنا على أن الملكات الذاتية ومقومات الشخصية والأخلاق المهذبة كلها عناصر فعالة فى تمكين الفرد من الوصول إلى وضع إجتماعى ما .

الثقافة والتعليم : وهما عاملان مهمان فى تعيين الوضع الإجتماعى للفرد . بل هما عاملان بارزان بحيث يمكننا القول بأن التفاوت الإجتماعى إنما يرجع فى معظم البلاد الديمقراطية الراقية ، وفى معظم الظروف إلى هذين العاملين . وتبدو هذه الظاهرة بوضوح فى البلاد التى تقيم وزنًا كبيرًا للشهادات والدرجات العلمية . ويبدو أثر ذلك واضحا فى مبلغ الإحترام الذى يناله الأشخاص ، وفى المسئوليات والوظائف التى يناطون بها تبعا لإختلاف درجاتهم العلمية .

الثراء : للثروة اعتبار مهم فى تحديد الوضع الإجتماعى للفرد ، فالثراء يعين طبقة الفرد الإجتماعية ، ويقرر حقوقه ويعين واجباته ، وتلك أهم مقومات الوضع الإجتماعى .

الحسب والنسب : يحدث كثير أن يكتسب الفرد وضعًا إجتماعيًا لإنتمائه إلى عائلة كبيرة أو أسرة لها وضع خاص (إمارة – نبالة – ارستقراطية) ، وقد لا تكون للفرد أية مواهب أو مميزات ذاتية ولكنه مع ذلك يشغل وضعًا مرموقًا يحسد عليه وذلك لمجرد إنتمائه إلى حسب ونسب معين . وهذه الظاهرة واضحة جدًا فى المجتمعات القبلية والمجتمعات المتخلفة . اما فى المجتمعات الديمقراطية الحديثة فقد فقدت هذه الظاهرة

قوتها ، وأصبحت مراكز الرجال وأوضاعهم إنما تحددها أعمالهم الإجتماعية وما يؤدونه لأوطانهم من خدمات بالإضافة إلى ما يتمتعون به من قدرات ومواهب خاصة .

التخصص المهنى : فى كثير من الظروف يتدخل التخصص المهنى فى تحديد الوضع الإجتماعى للفرد . لأن هذا التخصص يضفى على صاحبه صفات وإعتبارات معينة تميزه عن غيره من الأفراد . فالأوضاع الإجتماعية للطبيب والمحامى والمدرس تختلف كل الإختلاف عن الأوضاع الإجتماعية للنجار والحداد والنقاش وما إليهم . وقد تدر مهنة ما على صاحبها أضعاف ما تدره مهنة أخرى ومع ذلك يبقى صاحبها فى وضع إجتماعى لا يحسد عليه .

مكانة المرأة :

لقد إختلف الباحثون فى تحديد مفهوم مكانة المرأة . فيعرفه إبراهيم حافظ بأنه : « الإطار الذى يشمل النظرة العامة إلى المرأة ، والمشكلات التى تتعرض لها فى علاقاتها الإجتماعية كمشكلة إختلاط الجنسين ، وحقوقها المتعلقة بالتعليم والعمل والسياسة ، وعلاقاتها فى نطاق الأسرة مما يتصل بطبيعة الزواج ومركز الزوجة فى الأسرة ومشكلات تعدد الزوجات والطلاق »[١] .

ويحدد أحمد خليفه مكانة المرأة بعوامل عديدة متشابكة منها ما هو إجتماعى أو إقتصادى غير ذلك ، ويعتبر المستوى التعليمى والعمالة المكتسبة من أهم العوامل المحددة لمكانة المرأة لما لها من آثار تنعكس على المرأة نفسها وبالتالى تعكس آثارا هامة فى تغيير النظرة إلى المرأة ، فضلا عن أن الزواج وتقاليده والقوانين المنظمة له وتكوين الأسرة تعتبر أيضا من المتغيرات المحددة والمؤثرة على مكانة المرأة[٢] .

ويمكن القول ، بصفة عامة ، أن مقارنة مكانة المرأة بين المجتمعات المختلفة أسهل بكثير من مقارنة مكانتها بين القطاعات المختلفة لمجتمع واحد . فعلى سبيل المثال ، ينتسب معظم سكان مصر إلى القطاعات التقليدية التى نتوقع أن تمنح النساء فيها مكانة

---

(١) لويس كامل مليكه ، قراءات فى علم النفس الإجتماعى فى البلاد العربية ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م ص ٢٣٣ .

(٢) Khalifa , A , M . , Status of Women in Relation to Fertility and Family Planning in Egypt , Cairo , National Center for Social Research , 1973 . pp . 10-18 .

منحفضة ، أما الجزء الباقى من السكان فينتسب إلى قطاعات أخرى متحضرة ، من المسلم أن تمنح النساء فيها مكانة مرتفعة[١] .

وعموما ، يمكن القول بأن مكانة النساء تتحرك من أسفل إلى أعلى مع تقدم المدنية والتحضر . ولكن يجب أن نكون حذرين عندما نتبنى مثل هذه الإفتراضات ، حيث أن هناك مجتمعات بدائية كثيرة تحظى النساء فيها بمكانة مرتفعة .

وبالنسبة لمكانة المرأة فى مصر فإنه لا يمكننا أن نفصلها عن عملية التطور الإجتماعى والفردى ، فقد أثرت التغيرات السريعة التى حدثت فى مصر منذ قيام الثورة حتى الآن تأثيرًا عميقًا على حياة المرأة ، مما انعكس على مكانتها .

(دور المرأة والمجتمع المصرى) :

يتأثر الدور الذى تقوم به المرأة بنوعية المجتمع الذى تعيش فيه من حيث طبيعة تركيبه ، وتاريخ نضاله ، والحضارات التى عاشها ، والتاريخ الذى مر بمراحله والثقافات والمعتقدات التى أثرت فيه ، والأفكار والمفاهيم التى تسود عقلية الشعب الذى يتكون منه ، ومن حيث الفوارق بين الجنسين ونظرة الرجال للنساء ، وكفاح النساء من أجل تأكيد دورهن ومكانتهن وغير ذلك .

فإذا بدأنا بما يقال عن الفوارق بين الجنسين ، نجد أنه لا يوجد فارق بين المرأة والرجل فى الذكاء ، فهو لا يختلف بحسب الجنس . ولم تكشف إختبارات الذكاء عن أى إختلاف واضح بين الجنسين ، بل لاحظ بعض الباحثين أن البنات يتفوقن فى الذكاء على البنين من سن الثالثة إلى سن الرابعة عشر تقريبا ، ويرون أن البنات ينضجن أسرع من البنين فى الذكاء[٢] .

وتختلف الآراء حول مرجع الفروق بين الجنسين ، فيرجعها البعض إلى طبيعة الخلقة أو الفطرة ، ويقولون أن ذلك يؤيده علم الأحياء ، الذى أثبت أن تركيب جسم المرأة يختلف عن تركيب جسم الرجل . ويرجعها فريق آخر إلى الثقافة والتربية والبيئة ، ويدللون على ذلك بأن « مرجريت ميد » وجدت ثلاث قبائل يختلف فى أحدها مسلك

---

(١) Ibid، ص . ١٢ .

(٢) أحمد زكى صالح ، علم النفس التربوى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٩ ز ١٩٦٧ ز ص ٥٢٥ .

الرجال عن مسلك النساء ، وفى الثانية يتفقان ، وفى الثالثة الأمر معكوس ، ففى قبيلة (الأرابيش) يسلك الرجال والنساء السلوك المتوقع من النساء ففيهم رقة ولديهم ميل نحو الهدوء والدعة . والقبيلة الثانية هى قبيلة (الماندجمور) يسلك فيها النساء والرجال السلوك الذى يتوقع من الرجال ففيهم خشونة وصلابة . والقبيلة الثالثة هى قبيلة (التشامبولى) يسلك فيها الرجال مسلك النساء ، ففيهم خبث ودهاء ولديهم ميل إلى التحلى بالحلى وتصفيف الشعر ، على حين أن النساء أكثر نشاطا ، وهن يوجهن الرجال ولا يملن إلى الزينة .

وفى الواقع أنه لا ينبغى الخلط بين الحقائق البيولوجية الخاصة بالجنس والتى تجعل هناك إختلافا فى التكوين بين الإناث والذكور ، وبين الأدوار الإجتماعية الخاصة بكل من المرأة والرجل ، فهذه الأدوار تختلف من ثقافة لأخرى والتى تحدد لكل من المرأة والرجل ما يجب عليها أو عليها عمله للظفر بالمكانة الإجتماعية .

أما عن المفاهيم الخاصة بالتفرقة بين الجنسين بصفة عامة ، فنجد أن المجتمع المصرى لا يزال يدعم التمايز بين الفتاة والفتى فى تنشئة كل منهما . ففى الريف المصرى يتضح هذا التمايز منذ ولادة الطفل فيلاحظ إختلاف نوعية الهدايا التى تقدم للأم عند إنجاب الولد عن تلك التى تقدم لها عند إنجاب بنت . كما تعكس الحالة التى يكون عليها الآباء عند مقدم طفل جديد مدى هذا التمايز ، فالذى يبشر الأب بميلاد طفل ذكر مهنئا إياه بحرارة ومتمنيا – إذا كان المولود هو الطفل الأول – أن يكون له ابن آخر ، أو أن يتمم السبعة أبناء ، يكون من حقه هدية قيمة . أما فى حالة سماع الأب بخبر إنجابه لبنت ، فإنه يشعر بالضيق قائلا « ليتها لم تر الحياة » . ويعكس هذا القول مدى الفرحة التى تصحب مولد الولد . ومن الأقوال السائدة التى تعكس ذلك التمايز « الولد الذى يموت أفضل من حياة سبع بنات » . ومن الطريف الإشارة إلى أن الآباء والأمهات يقسمون بحياة أبنائهم البنين دون البنات ، ويعتبرونه قسمًا ملزمًا . ونجد أن البنات اللائى لهن أخوة بنين يفخرون بهم ويقسمن بحياتهم ويسخرون من أولئك اللائى ليس لهن أخوة بنين[1] .

---

(١) Ammar , H . , Growing up in an Egyptian Village , Silwa , Province of Aswan , London , Kegan Paul Ltd . , 2nd 1966 , P . 95 .

كما أننا نجد بعض الفواصل الثقافية – الاجتماعية التى وضعت للتمييز بين الذكور والاناث مما ينعكس فى تقسيم العمل ، وفى العلاقات بين الجنسين ، وفى تحديد الأدوار المناسبة لكل منهما ، فعن طريق مجتمع النساء تتعلم الفتاة الصغيرة السلوك المناسب ومحتوى الأدوار التى يعدها المجتمع لتنفيذه فى المستقبل . وفى جماعات اللعب نجد أن لعبة العروسة أو لعب عريس وعروسة هى اللعبة المفضلة الشائعة ، بينما يلعب الصبى بالبلى أو يتسلق الأشجار أو ينزل إلى الترعة للسباحة أو يلعب « عسكر وحرامية » . والوظائف المتنوعة التى يمكن أن تؤديها هذه الألعاب لكل من الفتى والفتاة هى اعدادهم لشغل مكانات مستقبلية وتعليمهم الأدوار المناسبة لتلك المكانات ، فهى السلوك المعيارى المتوقع[١] .

وتطمح الفتاة الريفية بأن تكون زوجة خصبة ترعى زوجها وأولادها ، ويتأثر سلوكها نتيجة للجماعة التى تتخذها إطارا مرجعيا لسلوكها ، وهى نموذج المرأة التى تتمتع بنشاط كبير ، وطاقة هائلة فى العمل المنزلى ، ولها عدد كبير من الأولاد الذكور بصفة خاصة . ومن منا المرأة تكتسب من الاحترام وكمال الشخصية بقدر ما تنجب من الأطفال – وخاصة الذكور – وبقدر ما توفق فى إدارة المنزل ، وتحافظ على مصالح الأسرة[٢] .

وبالنسبة للعلاقات بين الزوجين فى الريف ، يلاحظ أنه من التقاليد الريفية المعهودة أن يظهر الزوج سيادته فى المنزل ، وإن يفرض على الزوجة والأبناء هيبة تصل إلى درجة الخوف والرهبة . كما أن الزوج لا ينادى زوجته باسمها ، بل بكلمة (بت)[٣] . ويعكس ذلك سيطرة الرجل وتبعية المرأة واعتمادها عليه لتؤدى أدوارها .

ولذا نجد أن الوعى بقيمة الطاعة العمياء كصفة أساسية فى المرأة ، وعى مرتفع الدرجة ، سواء عند الرجال أو عند النساء أنفسهن . ولذا يعمل الآباء والأمهات جاهدين فى أثناء تنشئتهم لبناتهم ، على غرس هذه الفضيلة فيهن ، فيدربوهن منذ نعومة اظفارهن على الخضوع والاستكانة للأب وللأخوة الذكور بل (لصنف الرجال) . وتحقن المرأة

---

(١) كمال سعيد ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

(٣) هنرى حبيب عيروط ، الفلاحون ، ترجمة محيى الدين اللبان وآخرين ، ط ٨ ، القاهرة ، مؤسسة الحلبى للنشر والتوزيع ، ١٩٦٨ ، ص ٣٣ .

دائما بفكرة أن الرجل كامل الإرادة والسيطرة وأنها أضعف منه إرادة وأقل قدرة ، وإن حياتها تعتمد عليه وأنه سيدها ، وما هى إلا خادمة له »[١] .

ومما سبق يتضح أن كل أساليب التنشئة الاجتماعية تسير كلها فى خطوط متوازية لتأكيد السلوك المتوقع من المرأة سواء كانت فتاة أو زوجة أو أما .

أما فى المدينة ، فإن محتوى أدوار كل من الرجل والمرأة فى المجتمع الحضرى الصناعى الحديث غير واضح نتيجة للتغيرات الاجتماعية وتأثيراتها المتنوعة ، فقد تؤكد بعض الأجهزة على بعض الخصائص بينما تناقضها أجهزة أخرى .

وتبدو صورة المرأة فى المجتمع المصرى – غالبا – فى مظهر إنسان سلبى ، يقف من الأمور المهمة موقف الرائى دون عمل ما ، ويتجلى ذلك فى معظم الراويات والقصص التى يكتبها المصريون فالمرأة مرتبطة فيها بالجنس والحب[٢] . ولا شك أن عرض صورة المرأة على هذا النحو المتخلف من شأنه الإيحاء للنشىء بتخلف المرأة بطبيعتها[٣] .

ومفهوم المرأة عند العديدين من الرجال مفهوم منحرف ، ومفهوم الرجل عند العديدات من النساء – كما يبدو – مفهوم منحرف أيضا . وصور الإنحراف تبدو واضحة فى الكثير من الأمور ، عند اختيار المرأة للرجل لتتزوجه وعند اختيار الرجل المرأة ليتزوجها ، وتبدو عند المغالاة فى طلب المهور ، وتبدو عند تصدع الأسرة المصرية بالطلاق دون مبرر ، كما تبدو فى تعدد الزوجات دون شرط ، وكذلك تبدو فى حجم جناح الأحداث واتجاهاته ، بل وفيما تبرزه الإعلانات والدعاية التى يتفنن أصحابها ما شاءت لهم عقولهم المملوءة بخيوط الرواسب البالية المتعلقة بمعاملة المرأة ، فهم يتملقون شهوات ٢الرجل ويرسمون جسد المرأة عاريا أو شبه عار ، ترويجا لبضاعتهم ، وكذلك ما يحدث فى مضمون بعض القصص والتمثليات المكتوبة أو المعروضة على الشاشة الكبيرة أو الصغيرة عنها[٤] .

---

(١) نوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥٨ .

(٢) رجاء عيد ، دراسة فى أدب نجيب محفوظ ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٤ ، ص ٤٢–٤٥ .

(٣) نجيب اسكندر ، « نحو رؤية اشتراكية لعالم الطفل » ، مجلة الطليعة ، السنة الثانية ، العدد الرابع ، ابريل ١٩٦٦ ، ص ٤٦–٥٠ .

(٤) سيد عويس ، حديث عن المرأة المصرية المعاصرة ، القاهرة ، مطبعة أطلس ، ١٩٧٧ ، ص ٤٢–٤٣ .

ويمكن القول بأن مفاهيم المجتمع المصرى عن المرأة المصرية تعتبر ذات أهمية خاصة فى الدراسات الاجتماعية ، من حيث التعرف على النظرة السائدة عنها ، وعلى الخبرات والممارسة المتعلقة بدورها وبعلاقاتها . وهناك مجموعة من المصنفات الشعبية التى تشكل جانبا من أصول المعتقدات والاتجاهات الفكرية ، وتصويرًا سائدًا – خاصة فى الأوساط الشعبية – لمفاهيم المجتمع عن المرأة . ومن أهم المصنفات التى يجد الباحث فيها حصيلة غزيرة فى هذا الصدد ، الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة . فتذهب الأمثال الشعبية إلى اعتبار المرأة أدنى مكانة من الرجل ، وتجعل الأمر له دونها ، والرأى الصائب لا يأتى منها .

« شاوروهم ، واخلفوا شورهم »

« الراجل بن الراجل ، اللى عمرهما يشاور مره »

كما تصور نظرة الرجل إلى المرأة ، فهو لا يأمن جانبها أيا كانت :

« احذر المره السليطة ، ولا تأمن للمره العاقلة »

« آمن للحية ، ولا تآمن للمره »

والمرأة عورة ، ينبغى سترها ، فالرجال حين يزوجون بناتهم « يدارو عرضهم » أو « يلموه » .

وإذا أريد تحقير الرجل فهو « امرأة » ، ومن أحقر الشتائم أن يلقب الرجل باسم أمه[1] .

أما بالنسبة للمرة ، فقد عبرت الأمثال الشعبية عن طبيعة علاقتها الزوجية ونظرتها للزوج . فالمرأة إنسان ضعيف « مكسور الجناح » لا حول له ولا قوة ، إلا بارادة سيده ، والرجل هو كل شىء فى حياة المرأة ، وبدونها لا قيمة لها ، فهو الذى يمنحها القيمة الاجتماعية ، والمجتمع لا ينظر إليها إلا من خلال زوجها . تقول الأمثال :

« حرمة من غير راجل زى الطربوش من غير زر »

« ضل راجل ولا ضل حيط »

---

(١) أحمد رشدى صالح، الأدب الشعبى، ط ٢، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥ ، ص ٦١، ١٦٢ .

وفى جانب آخر صورت الأمثال الزوجة فى صورة الذليلة التى لا تستطيع أن تقاوم سلطان الرجل وسطوته :

« خدوا جوز الخرسا ، اتكلمت »

« خدوا جوز العاقلة ، اتجننت »[1] .

ومما سبق يتضح أنه على الرغم من أن دور المرأة فى المجتمع المصرى قد تغير ، ولم يعد قاصرا على دورها التقليدى كزوجة وربة بيت ، فقد أتيح لها أن تتعلم وأن تعمل وأخذت دورًا واضحًا فى الحياة الاجتماعية ، إلا أن هذا التغير فى الدور لم يصاحبه تغيرًا مماثلاً فى الأفكار والمفاهيم التى تسود عقلية الشعب عن المرأة .

(١) إبراهيم أحمد شعلان ، الشعب المصرى فى أمثاله العامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٥-١٠٦ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

عهد التخلف

فى الفصل السابق تحدثنا عن صورة المرأة كما رسمها الإسلام ، وبينا كيف أن الإسلام قد أعطى للمرأة من العناية والرعاية ما لم يعطه أى تشريع آخر . وقد كان عطاء الإسلام نابعا من تقديره للدور الاجتماعى الخطير الذى تقوم به المرأة ، كذلك أيضا أوضحنا كيف قرر الإسلام حق التعليم للمرأة وجعله فريضة لأنه أساس الإيمان ودعامة اليقين . وذكرنا أنه إذا كان ثمة خلاف بين المفكرين والإسلاميين فى تعليمها فإنما هو خلاف فى تعليمها غير الدينى هذا التعليم الذى تحكمه ظروف المجتمع ونظمه ، وعرفنا أيضا مكانة ودور المرأة فى الواقع الاجتماعى كإطار مرجعى نستند إليه فى معالجة الفصل التالى .

وفى هذا الفصل سنتناول عهد التخلف موضحين كيف أن هذه الصورة الواضحة للمرأة قد انطمست معالمها وكيف أن الفكر الإسلامى قد أصابه التحجر والجمود بحيث صار عقبة كأداء أمام كل حركة إصلاحية تقدمية .

وسيكون العهد العثمانى محور الحديث فهو أسوأ العصور التاريخية التى مر بها المجتمع الإسلامى . ومع أن الفكر الغربى قد بدأ إتصاله بالفكر الإسلامى فى مستهل القرن التاسع عشر حيث كانت الحملة الفرنسية ثم كانت جهود محمد على منذ عام ١٨٠٥ م – إلا أن سمة التخلف التى عرف بها هذا العهد ظلت طابع الحياة المصرية وحياة المرأة على وجه الخصوص لفترة غير قصيرة من القرن التاسع عشر . ولقد ظلت مصر ولاية عثمانية حتى أواخر هذا القرن .

لذا لم يكن من المستطاع أن يحقق إتصال الشرق بالغرب نتائج عاجلة وسريعة ، ومن ثم فإن أهمية الحديث عن هذا العهد إنما تأتى من حيث أنه النقيض المناهض لحركة التجديد والإحياء تلك التى شهدها هذا القرن .

وسنعرض فى هذا الفصل بإيجاز لمكانة المرأة المصرية ودورها الاجتماعى . كما سنحاول الإشارة إلى العصور السابقة للعصر العثمانى لأنها شكلت رصيدا ثقافيا مهما ساهم فى تكوين شخصية المرأة المصرية وأثر على تربيتها ، وذلك حتى تتضح الرؤية وتوفر لدينا قدر من المعلومات يتيح التفهم لحقيقة وضع المرأة فى العصر العثمانى ومدى تأثر تربيتها بهذا الوضع .

ما قبل العصر العثمانى :

أولاً : العصر الفرعونى :

إذا ما عدنا إلى التاريخ الفرعونى بإعتباره أقدم تاريخ واضح المعالم ورحنا نتبين وضع المرأة وأهميتها الاجتماعية – فسوف نجد المرأة قد حظيت بقدر من العناية لم تحظ به امرأة فى العالم القديم ، لقد وقفت جنبا إلى جنب مع الرجل تصنع أول وأعظم حضارة عرفتها الإنسانية فى تاريخها القديم . فبينما كانت المرأة تعيش حياة أقرب إلى الهمجية منها إلى الآدمية حيث عاشت تلبى رغبات الرجل الجسدية وتخرج إلى الغابات بعد ذلك بحثا عن القوت والطعام كانت المرأة المصرية تتمتع بحياة عائلية سعيدة ، وحياة اجتماعية راقية قائمة على أساس من إحترام تقاليد الأسرة ومبادىء المجتمع فكان لها الحق فى إختيار زوجها ، ولها حق التصرف الكامل فى شئونها الاقتصادية متى بلغت سن الرشد ، فلم يكن يعقد بيع ولا شراء إلا بعد موافقتها .

على أن نشاط المرأة لم يقف عند مجال الأسرة بل تجاوزه إلى مجالات أخرى عديدة ، فشاركت فى العلوم والفنون والآداب والدين والسياسة . وقد حفظت لنا كتب التاريخ القديم العديد من النماذج النسائية التى أكدت نشاط المرأة ودورها فى حياة عصرها ، ومن هذه النماذج الفيلسوفة المصرية « بامفيل » وعالمة الفلك « كانيس » .

ووصل الأمر برقى المرأة إلى حد التأليه فها هى « نبت » التى وجد لها تمثال فى مدينة « سايس » مكتوب تحته هذه العبارة « أنا كل شىء ، كان ، وكائن ، وسيكون ، ولم يرفع أحد من البشر قناعى »[1] .

---

(١) إجلال خليفة ، الحركة النسائية الحديثة ، القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٧٣ ص ٢ .

وساهمت المرأة الفرعونية فى السياسة وارتقت العرش وحكمت البلاد حكما مباشرا سواء أكان ذلك بمفردها أم بالمشاركة مع زوجها أو أخيها . ويؤكد هذه الحقيقة تلك الآثار القديمة التى خلفها لنا هذا العصر فكانت « تى » أم « اخناتون » و « نفرتيتى » زوجة « اخناتون » التي تزعمت حركة الإنقلاب الدينى وإشتركت فى وضع أسس الدين الجديد الذى قضى بأن تجمع الآلهة كلها فى إله واحد وكانت « بنت أفرت » التى حكمت مصر ١٢ عاما ساد الرخاء فيها البلاد وكانت « حتشبسوت » أشهر ملكات مصر القديمة وهى التى أقامت الأسطول التجارى الذى جاب الشواطىء فى شرقى أفريقيا . وكانت كليوباترا الملكة ذائعة الصيت التى امتدت شهرتها إلى الآداب العالمية .

لقد أكد هيرودت حقيقة مهمة حين قال : « إن المرأة المصرية القديمة أكثر نشاطا من رجلها فالنساء يذهبن إلى السوق يبعن ويشترين فى حين أن الرجال يلازمون البيوت حيث يقومون بنسج الأقمشة[1] ويقول ول ديورانت لقد كانت النساء يقضين حوائجهن فى الشوارع من غير رقيب عليهم ولا سلاح معهن وكن يمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن .

وهكذا يؤكد لنا التاريخ القديم مدى رقى الحضارة المصرية وتميزها على غيرها من الحضارات فقد رفعت من شأن المرأة ونوهت بدورها . يقول « ماكس ميللر » ليس فيه شعب قديم أو حديث رفع منزلة المرأة مثلما رفعها سكان وادى النيل[2] .

وبلغ من عناية هذا العصر بأمر المرأة أنه كان يعد الأمومة أعظم شأنا من الأبوة وكان النسب يعزى للأم .

وقد يفسر هذا الرقى بالظروف الطبيعية والجغرافية التى هيأت للمجتمع المصرى حياة الهدوء والإستقرار والتى جعلت منه مطمعا للاستعمار قديما وحديثا . على أن هذا الرقى الذى حظيت به المرأة كان لابد أن يكون له أثره فى تربيتها ، وكان لابد أن تحظى تربيتها بقدر كبير من الأهمية فالتربية هى أداة التطور والرقى .

والمرأة الفرعونية القديمة لم تكن سلبية أبدا حتى فى أوقات الإحتلال ذلك أنه عندما منيت مصر بالإحتلال البطلمى سنة ٣٣٢ ق .م . لم تتخلف المرأة عن مشاركة الرجل

---

(١) وهيب كامل ، هيرودوت فى مصر ، القاهرة : دار المعارف ١٩٤٦م ص ٦ .

(٢) ول . ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ ٢ز القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٩٦ .

فى نضاله ومقاومته ، ولقد فطن الحاكم البطلمى « فيلوباتور » للسبب الأساسى فى قوة المقاومة وعنفها فأصدر قانونا ينص على حرمان المرأة من حق التصرف فى اقتصادها ، واقتصاد الأسرة كما نص على تحريم طاعة الرجل للمرأة وإنتساب الأولاد لآبائهم وحق تصرف الرجل فى الشئون النسائية . وتربية المرأة الفرعونية كانت تستمد مقوماتها من هذه المكانة السامية التى تمتعت بها .

ثانيًا : العصر المسيحى :

دخلت المسيحية مصر والرومان فيها سنة ٦٥م وبدخولها بدأ العصر القبطى لمصر وقد استمر حتى ٦٤١م عندما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص وقد عادى الرومان الوثنيون المسيحية عداء مريرا أول الأمر وبلا تفكير ، وتبارى أباطرة الرومان فى تعذيب المسيحيين والتنكيل بهم ولعل مذبحة « نيرون » الشهير هى خير شاهد على ذلك وقد حدث هذا الإضطهاد سنة ٦٤م فقد كان « نيرون » يضع بعض المسيحيين وهم أحياء فى جلود الحيوانات ، ويطرحهم للكلاب تنهشهم ويطلى بعضهم الآخر بالقار ، ويعلقهم على مشانق ، ثم يضرم فيهم النار ليجعل منهم مشاعل يستضىء بها وهو يمر بالليل[١] .

على أن قوة النضال وتمسك الأقباط بدينهم جعل الرومان يعدلون عن هذه السياسة ويعتنقون المسيحية وقد صدر مرسوم التسامح الدينى سنة ٣١١م . وصارت المسيحية دينا رسميا للدولة الرومانية سنة ٣٧٩م . فأخذت تطبع جوانب الحياة المختلفة بطابعها الخاص فصارت الكنيسة تعنى الدين والدولة معا . وأصبحت المؤسسات التربوية تحرص على بث التعاليم المسيحية وترسخ مبادئها فى النفوس وصارت الأديرة أماكن عمل وإنتاج .

وفيما يختص بالمرأة فقد أعطتها المسيحية بعض الإعزاز وحمتها من المهانة فمن تعاليمها لا يهودى ولا إغريقى لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى كلكم واحد فى يسوع المسيح غير أن هذا الإعزاز كان ضئيلا إذا ما قيس بإعزاز الرجل ، فالرجل مخلوق على صورة الله ، أما المرأة فمخلوقة من جنب الرجل ، وقد فسر رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت فى الإنجيل بأن المرأة حليف الشيطان[٢] .

---

(١) زكى شنودة ، تاريخ الأقباط ، جـ ١ ز القاهرة : ١٩٦٠ م ص ١٠٢ .

(٢) سعد مرسى وسعيد إسماعيل ، تاريخ التربية والتعليم ، القاهرة : عالم الكتب ١٩٧٢م ص ١٦٠ .

ولعل إنتشار الرهبنة وكثرة الأديرة كان له أثره فى تعميق نظرة الإستهانة إلى المرأة والتزهيد فيها ، فقد إرتبطت صورة المرأة بفكرة الخطيئة .

على أن هذا لا يعنى عدم حرص المسيحية على استقرار الأسرة على أسس روحية فقد شبهت علاقة الزوج بزوجته كعلاقة الرأس بالجسد ، للزوج التدبير والتوجيه وعلى الزوجة الطاعة والتنفيذ ، على أن تقوم العلاقة بينهما على أساس من المحبة .

وطبيعى أن تتجه تربية المرأة إلى الإعداد للحياة الأسرية والإستعداد للتعاليم الدينية ، ونظرة عامة إلى المؤسسات التربوية فى هذا العصر لتوضح لنا ذلك ، وقد تمثلت هذه المؤسسات فى :

١ – المنزل .
٢ – الكنيسة .
٣ – المدرسة .

فالكنيسة لم تكن مجرد دار للعبادة وإنما كانت مدرسة تعمل على تحقيق غرض الله من خلق الإنسان وهو أن يعبده ويحفظ وصاياه ليكون له نصيب فى ملكوت السماء ، كما تعمل على ادماج المسيحى فى الحياة الكنسية بكل ما فيها من ورع وطهارة وكانت الصلوات والقداسات التى تمارس بما فيها من موسيقى أداة فعالة فى تربية الوجدان ، على أن الكنيسة أيضا كانت ذات طابع اجتماعى فهى التى قد عملت على تأكيد قوانين الزواج والطلاق وحماية الأسرة والطفولة ، وكذلك كانت المدرسة التى أقيمت بالإسكندرية عام ٥٨م تهدف إلى تعليم المصريين المسيحيين حقائق هذا الدين الجديد[١] .

ومما هو جدير بالذكر أن المرأة المصرية القبطية حتى بعد الفتح الإسلامى ظلت تتمتع بقدر كبير من الحرية والإختلاط فجاز لها أن تخالط أقاربها من الذكور وأصدقاء زوجها وأبيها فلم يكن الإسلام ليتعرض للعادات والتقاليد القبطية ولم يكن ليحاربها أو يقضى عليها فإن هذا لا يتفق وما نادى به من سماحة وعدم الإكراه ، ويذكر التاريخ أن عمرو بن العاص قد منح اليعاقبة امتيازات وردّ بطريقهم من منفاه إلى كرسيه ، كذلك سمح الوالى مسلمة بن مخلد (٥٣ – ٦٣ هـ) بأن يبنى القبط مدينة لهم فى الفسطاط مع

(١) محمد سلام زناتى ، إختلاط الجنسين عند العرب ، القاهرة : دار الجامعات المصرية ١٩٥٩ – ص ١٢٦ ، ١٣٠ .

مافاة ذلك لشروط الصلح ، والخلفاء الشيعة فى القاهرة قد عاملوا رهبان القبط معاملة تنطوى على العطف والرعاية وكان « الكامل » الأيوبى بإجماع المسيحيين على جانب عظيم من التسامح الدينى[١] .

ثالثًا : العصر الإسلامى :

جاء الإسلام بعد أن قطعت الإنسانية شوطا طويلا فى التدرج والرقى وبعد أن وصلت إلى مستوى من الفكر ناضج قادر على تفهم هذا الدين الجديد واستيعابه وإتخاذه كتشريع يكفل لها السعادة والرقى .

ومصر وهى أكثر البلاد تدينا وأرسخها قدما فى هذا وأرقاها حضارة وتمدينا – كان طبيعيا أن تكون أكثر البلاد إستجابة لهذا الدين وأسرعها اعتناقا له ويتضح ذلك من التسهيلات العديدة التى قدمها أقباط مصر للفاتح عمرو بن العاص بعد أن سمعوا الكثير عن سماحة الإسلام وعدالته .

وهناك بعض الآراء تذهب إلى أن الإسلام سهل إنتشاره بفضل الهجرات العربية القديمة وبفضل الإتصال إما عن طريق التجارة حيث كان السبئيون ينقلون العروض الهندية الحبشية على قوافلهم إلى مصر ، وكان عرب الشمال يحملون المتاجر إلى مصر وهم الذين إشتروا يوسف وباعوه ، وإما عن طريق الإغارة والغزو ، فقد كانوا يقومون بالإغارة على الجزء الشمالى والشرقى من مصر ويتنقلون فى البادية ما بين النيل والبحر الأحمر وقد سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر وملكوها وعرفت دولتهم بدولة الهكسوس أو العرب البائدة ويقال أن لفظ « هكسوس » أصله « هيك شاسو » ومعناه ملوك البدو[٢] .

ويذكر « ستانلى لينبول » أن مصر لم تصبح إسلامية إلا بعد فترة طويلة وبعد اندماج العرب فى أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة ، وبعد الزيادة المطردة فى العرب النازحين إليها عن طريق الهجرة[٣] .

---

(١) ستانلى لينبول (ترجمة حسن إبراهيم وآخرين) ، سيرة القاهرة ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٨٧ .

(٢) جورج زيدان ، العرب قبل الإسلام ، القاهرة : دار الهلال : ص ٧ وما بعدها .

(٣) ستانلى لين بول ، مرجع سابق ص ٧٠ .

على أن الإسلام فى جوهره ومبادئه الإنسانية الواضحة كان كفيلا أن يجتذب إليه الشعوب لا شعب مصر وحدها ، وأن ترى الشعوب فيه أملها وغايتها فقد ارتقى معنى الألوهية إلى أعلى درجة من التنزيه والتقديس وقضى على كل وثنية ، ودعا إلى أن الناس سواسية ، كما أقام المجتمع على أسس تشريعية راسخة تمثلت فى :

١ – القرآن .
٢ – السنة .
٣ – الإجماع .
٤ – القياس .
٥ – الإجتهاد .

وبالنسبة للمرأة فقد وجدت فيه أرقى منزلة يمكن أن تطمح إليها وأسمى غاية تحاول أن تبلغها . ولعل فى إهداء المقوقس . عظيم القبط فى مصر مارية القبطية للرسول – ما يدل على معرفة « المقوقس » بمكانتها ومنزلتها فى الإسلام . وهذه شهادة من مستشرق فرنسى عرف بتعصبه الشديد ضد الإسلام وهو « رينان » قال : « من أكبر الأخطاء تلك الفكرة المنتشرة بين الغربيين عن الحالة التى خص الإسلام بها المرأة ، فالمرأة العربية –فى أيام محمد – لم تشبه بأى كيفية تلك المخلوقات الغبية التى عمرت حريم آل عثمان . ومع أن العرب كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها أقل من الرجل فى بعض الصفات الممتازة إلا أن المرأة المسلمة على العموم سيدة نفسها فى كثير من الأمور ، فهى التى تدير أموالها وتختار زوجها ، كما إشتهرت كثيرات فى ميدان الشعر والأدب »[1] .

وهنا يكمن التساؤل : إذا كان الإسلام قد رفع شأن المرأة ونوه بأهميتها وإذا كانت مصر قد اعتنقت هذا الدين واعتزت به وكانت عاصمة للخلافة فى بعض الحقب التاريخية – فلماذا كان واقع المرأة يناقض ما قرره الإسلام ؟

ونحن نقول فى إجابتنا على هذا التساؤل أن حال المرأة السيىء وواقعها المظلم الذى عاشته لم يكن وقفا على مصر وحدها بل كان هذا حالها فى العالم العربى عموما . ولم يكن الإسلام هو السبب فى هذه الحال ، ولم يكن هو الحائل بين المرأة وبين الرقى ، فلكى نقف على العوامل الحقيقية وراء هذا التخلف فلابد أن نلم بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عاشتها المرأة ، فالإسلام كدستور بحاجة إلى من يتفهمه ويحرص على تطبيقه بعيدا عن الرغبات الخاصة والأطماع الإستبدادية ، ولعل هذا ما يفسر

(١) فؤاد عبد الله نويرة ، الإسلام والخدمة الاجتماعية ، وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ١٩٦٠ ص ١٤٠ .

لنا الفرق بين المجتمع الإسلامى الأول حيث كان الإسلام روحا وطاقة خلاقة وبين المجتمع الإسلامى فى العصور المتأخرة حيث صار الإسلام شكلا ومظهرا أكثر منه مضمونا وجوهرا بل وصار ستارا تختفى خلفه الأطماع والأهواء .

والمرأة لا يمكن لها أن تنهض وتتطور إلا إذا توافرت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الملائمة ، وإلا إذا أخذت بقدر من التعليم يتناسب مع هذه الظروف ويكفل لها أداء رسالتها فى مجتمعها الذى تعيش فيه .

فمثلا فى عصر المماليك البحرية شهدت مصر نهضة علمية ودينية فانعكست هذه النهضة على وضع المرأة وتربيتها فنالت الإحترام والعناية ، وشاركت فى النشاط العلمى والدينى ، وإشتغلت بالنحو والفقه والحديث . وكانت تقصد المسجد وتجلس فى مكان خصص لها تستمع لدروس الدين . كما سمح لها بقسط وافر من الحرية فكانت تغيب عن منزلها فى أوقات كثيرة من النهار دون أن تتعرض للوم زوجها ، وكانت تذهب إلى الحمام حيث تجتمع النساء ويتناقلن أخبار البيوت والناس ، وكثيرا ما خرجن إلى القرافات وشاطىء النيل وغيرها من أماكن اللهو حيث ينكشف ستر الحياء ، ويختلط النساء بالرجال . مما أثار غضب الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع النساء من الخروج على هذا الوجه . أما المرأة فى الريف فظلت تقوم بدورها الأزلى فى جلب مياه الشرب من الترع أو النهر[١] . ويقال أن الضربة القاصمة التى أصابت المرأة جاءتها من حاكم لا حول له ولا سلطان خليفة مصاب بعقدة نفسية ، غبى بليد هو الخليفة القادر[٢] .

وهكذا فإن للوضع السياسى والاقتصادى والاجتماعى أثره فى وضع المرأة وتربيتها كما له أثره أيضا فى نشاط الفكر الإسلامى وتجدده ، وسيتضح هذا جيدا من خلال تناولنا لفترة الحكم العثمانى عهد التخلف .

العصر العثمانى :

يعد العصر العثمانى أسوأ العصور التى مر بها العالم العربى عموما ومصر على وجه الخصوص فقد منيت مصر بهذا الاستعمار سنة ١٥١٧م وبدأت تدخل حقبة مظلمة من

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليكالبحرية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٧٧.

(٢) سيجريد هونكه (ترجمة فؤاد حسنين) ، فضل العرب على أوربا ، القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٦٤ ، ص ٣٨٦.

تاريخها غطت على كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمدة ثلاثة قرون تقريبا . وكان لها أثرها السيىء فى وضع المرأة المصرية وتربيتها ، وفى جمود الفكر الإسلامى وتخلفه .

الوضع السياسى :

خرص العثمانيون فى سياستهم الخارجية على فرض إطار من العزلة والتآكل الداخلى بهدف الحيلولة بين مستعمراتهم وبين تيارات التقدم التى أخذ يموج بها العالم الغربى ويعزى هذا إلى أن الأتراك تسلموا حكم العرب وقد حل بهم قدر كبير من الإعياء والجهد نتيجة الحروب الطاحنة التى خاضوها ونجم عنها أن سيطرت عليهم عوامل القلق وخاصة بعد ضعف مواردهم الاقتصادية .

وباسم الدين أمكن للعثمانيين هزيمة الإيرانيين الشيعة وهزيمة البرتغاليين المسيحيين والتقدم نحو الشرقوباسم الدين أيضا أخذوا يحكمون الشرق فقد كان العربى يرى أنه من الدين أن يطيع الخليفة ويخضع له ، أما الخروج على الخليفة فهو إضعاف للدين والدولة معا ، ونتج عن هذه السياسة التى اتخذت الدين ستارا لها أن صار الشرق ومنه مصر على وجه الخصوص فى واد والغرب فى واد آخر ، فبينما عاش الشرق جامدا منطويا على نفسه وبينما كان الكيان العربى آخذا فى التدهور – منطبعا بسمات المجتمع الاقطاعى كان الغرب قد أخذ يجنى ثمار المدنية الحديثة نتيجة للثورة الصناعية التى بدأت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . حيث ظهرت الطريقة العلمية التجريبية وتقدمت العلوم الطبيعية ، واستحدثت وسائل الدفاع ، وشيدت الأعمال الهندسية ، وظهرت وسائل جديدة للنقل والمواصلات عملت على ربط العالم بعضه ببعض . كما ظهرت الدول المنظمة التى تعمل لتحقيق صالح الشعوب ، وصار الحكم فيها يقوم على خطط مرسومة ، وبدأت الدعوة تنتشر من أجل العدالة والمساواة ، وأخذ التشريع الاجتماعى يهدف إلى حماية الحقوق وكفالة الكرامة الإنسانية ، وإتجهت الجهود كلها إلى الإنتاج والعمل على زيادة الثورة ، وذخرت الحياة الأوربية بمختلف الأنشطة فى كل الميادين[1] .

---

(١) محمد ضياء الدين الريس ، الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث ، القاهرة : مكتبة الشباب ١٩٦٥م ص ٣٠ .

كل ذلك والعالم العربى ومصر خاصة يعيش فى عزلة وجمود ، وقد حسب الأتراك هذه السياسة كفيلة بأن تجنب البلاد التى يحكمونها الأطماع الاستعمارية ولكن الواقع كان غير ذلك فقد إنقلبت موازين القوى ، وتغير الوضع وصار الغرب هو الأقوى وأصبحت الدولة العثمانية تحمل اسم « الرجل المريض » فتحول الدين من طاقة خلاقة ملهمة إلى مجرد شعائر شكلية تفتقد الروح التى تحركها وتدفعها . فكانت السياسة الإسلامية الشكلية التى تبنتها الدولة توحى باستعمار غربى جديد .

هذا عن السياسة الخارجية – أما عن نظام الحكم الداخلى فقد كان يصدر أيضا عن نفس الروح التى أملت السياسة الخارجية ، وهى روح الطمع والإستبداد وإشباع الرغبات الخاصة فقسمت السلطة بين هيئات ثلاث :

(أ) الوالى :

وهو يمثل السلطان العثمانى ومهمته جمع الجزية وأحكامه كانت مطلقة ونهائية ، حتى لقد كان يصدر أحكاما بالإعدام فلا تناقش ، وكان لا يعين إلا لمدة عام واحد ، حتى إذا ما إنتهى العام جدد له أو نقل إلى وظيفة أخرى . مثل هذا الوضع كفيل بأن يدفع الوالى إلى أن يلجأ لكل وسائل السطو والإستغلال والسيطرة وأن يهمل تماما كل مشروع إصلاحى ولا يعنى إلا بنفسه ولا يهتم إلا بجمع أكبر قدر ممكن من المال .

(ب) الديوان :

وهو يمثل القوة العسكرية التى يشكلها ضباط الحامية العثمانية وكثيرا ما عاثوا فى الأرض فسادا .

(جـ) المماليك :

وقد اعتبروا أرض مصر ملكا لهم فوزعوها فيما بينهم فى شكل اقطاعات وسخروا الفلاحين فى خدمتها وزراعتها . وكان يرأس أمراء المماليك شيخ البلد ومقره القاهرة .

ومما هو جدير بالذكر أن توزيع السلطة بين الهيئات الثلاث لم يكن يهدف إلى تحقيق نوع من الديمقراطية بل كان يهدف إلى خلق روح من التشاحن والصراع حول السلطة . حتى لا تتركز فى يد واحدة تستطيع أن تستأثر بالأمر وتستقل بالبلاد . وهذا ما حدث

فى عصر محمد على حيث استطاع أن يطيح بالقوى المناوئة وأن ينفرد وحده بالأمر وأن يعلن إستقلاله عن الدولة العثمانية .

وقد علق « ابن إياس » على هذه السياسة بقوله : « كان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك الشراكسة ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل وكلامه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد » ، ويقول عن الجنود العثمانيين : « كانوا جميعا عيونهم دنية ونفوسهم قذرة ، وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين ، يتجاهرون بشرب الخمر بين الناس فى الأسواق ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة وليس لهم نظام يعرف ، لا هم ولا وزراؤهم ، وهم همج كالبهائم »[1] .

الوضع الاقتصادى :

كان السلطان العثمانى يعتبر الأرض ملكا له ولورثته من بعده ، وكان الأخذ بطريقة الإلتزام يوجب على الملتزم أن يقوم أولا بدفع الضرائب للحكومة ، ثم يقوم بعد ذلك بتحصيلها من الفلاحين مضافا إليها فوائد مالية يقدرها الملتزم كما يحلو له .

وقد دفع هذا بالملتزم إلى الحرص على جمع المال والإنصراف عن أى إصلاح ، فكان أن أهملت وسائل الرى ، فطمرت الترع ، وتهدمت القناطر ، وخربت الجسور ، وزحفت رمال الصحراء على الأراضى الزراعية ، وأخذت الزراعة تعتمد على فيضان النيل كما كانت طريقة رى الحياض هى الطريقة المستخدمة فى الزراعة ، واستمرت زراعة المحاصيل التقليدية كالقمح والشعير والفول والبصل وغير ذلك .

وكما انحطت الزراعة انحطت أيضا الصناعة فضعف نظام النقابات والطوائف الصناعية كما إنقرض الكثير من الصناعات الدقيقة ، وما تبقى منها أصابه الجمود والتخلف ، ولم تبق إلا الصناعات البسيطة كضرب الأرز ، وغزل ونسج القطن ، والصوف ، والصناعات الخاصة بالبناء والبسط .

ومما زاد فى تدهور الصناعة وإصابتها بالشلل تلك الفعلة النكراء التى قام بها السلطان سليم عندما قام بسحب خيرة العمال والمهرة وبعث بهم إلى الإستانة .

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، مطابع الشعب ، ص١١١١ .

وفى مجال التجارة فقد تدهورت نتيجة التحول الملاحى إلى طريق رأس الرجاء الصالح مما كان له أثره البالغ فى تدهور الحياة الاقتصادية وفى أن تفقد مصر جزءا كبيرا من دخلها .

الوضع الاجتماعى :

وطبيعى أن يكون الوضع الاجتماعى محصلة للوضعين السابقين . وإذا رحنا ننظر فى التركيب الطبقى للمجتمع فى ذلك الوقت فسوف نجده يتكون من طبقتين : إحداهما حاكمة ، والأخرى محكومة .

وتتكون الأولى من : الأتراك : وهم الذين يمثلون الصفوة المختارة والطبقة الارستقراطية فمنذ آلت إليهم أمور البلاد وقد أصبحوا يهيمنون على كل مناشطها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، ثم المماليك هم أيضا كانوا أصحاب قوة وبطش يستشعرون بملكيتهم للبلاد وإستحقاقهم لها .

أما طبقة المحكومين فتتكون من : الفلاحين وهم أتعس الفئات حظا ، وأنكدهم عيشا وأكثرهم أسى . فقد ذاقوا الويل والحرمان وعانوا الذل والإستبداد . ثم طبقة التجار وهؤلاء لم يكونوا أكثر من وكلاء للإحتكار السلطانى ، وكانوا يعرفون بتجار السلطان وإذا ما قدر لأحد منهم أن يجمع ثروة طائلة فسرعان ما ينقض عليه الوالى فيصادر أمواله ويجرده منها ، وبذا يشل نفوذهم .

ثم طبقة العلماء ورجال الدين ، وهذه الطبقة كانت تتبوأ مكانة ممتازة بالنسبة للفئات الأخرى ، فقد نال العلماء الكثير من التجلة والإكبار ، على أنه مما تجب مراعاته أن تقدير العثمانيين للعلماء ورجال الدين لم يكن مبعثه الدين ذاته ، بل كان الغرض إتخاذهم أداة تخدير للشعب وهدهدة للشعور الدينى ، ذلك المارد الكامن فى النفوس .

غير أن هذا هيأ للعلماء مكان الزعامة الشعبية والتدخل فى سياسة الدولة فكثيرا ما كان الشعب يلجأ إليهم كلما نزلت به ضائقة أو أصابه ذل ومكروه .

أما عن الآثار المترتبة على هذا التركيب الطبقى فقد تمثلت فى طبيعة العلاقة التى تربط الحاكم بالمحكوم وهى علاقة قائمة على العسف والإستبداد ، ولقد صورها الكواكبى

بقوله : « ما أشبه المستبد فى نسبته إلى رعيته بالوصى الخائن القوى على أيتام أغنياء ، يتصرف فى أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين » .

ويقول عنها « بورنج » فى تقريره : « وقد عم الأهلين الإحساس بما هم عليه من ضعة الشأن ، وإنتشر فيهم روح الخضوع والإذعان حتى ليخيل إلى الإنسان أنهم يعترفون بحكم الأقلية التركية بما لها من قوة وسلطان فى حكم الأكثرية المصرية ، فكثيرا ما يقول المصريون فى ذلة وخضوع « ما نحن إلا فلاحون » . ولم يكن ذلك راجعا إلى عدم تعلق المصريين ببلادهم ، فهم يحبونها بكل جارحة من جوارحهم ، وإنما يرجع ذلك إلى أنهم يمقتون الحياة العسكرية ، لأنها تباعد بينهم وبين مسقط رأسهم »[1] .

وطبيعيا أن ترفع الطبقة الحاكمة عن الإختلاط بالشعب ومصاهرته وأن تنظر إليه نظرة كلها سخرية وازدراء ، وواضح هذا من الألقاب التى أطلقتها عليه مثل : الفلاحين ، أولاد العرب . وكثيرا ما يحلو للكتاب الأجانب أن يستخدموا مثل هذه الألقاب كما فعل « ادوارد لين » فى كتابه « عادات وتقاليد المصريين » .

ويصور الجبرتى حال الشعب وما يعانيه من فاقة ، وذلك فى حوادث ١١٩٨ هـ فيقول : واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والبغال ، فإذا خرج ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع ، ومات الكثير من الفقراء بالجوع . ويقول أيضا « وفسدت النيات ، وتغيرت القلوب ، وتغيرت الطباع ، وكثر الحسد والحقد فى قلوب الناس لبعضهم البعض فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها إلى الظالم حتى خرب الإقليم وإنقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، وجلا الفلاحون من بلادهم من الشر والظلم ، وانتشروا فى المدن بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور بطيخ وغيره . فلا يجد الزبال شيئا يكنسه من ذلك » .

وإلى جانب الفقر والحرمان انتشرت الأمراض والأوبئة ، وفشت الرشوة ، وزاد النفاق والكذب إلى غير ذلك من الأدواء الإجتماعية .

---

(١) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة مصر محمد على ، القاهرة : دار الفكر العربى ١٩٤٨م ، ص ٣٨٥ وما بعدها .

وننتقل الآن إلى الحديث عن الحالة العلمية بإعتبارها المناخ الذى ساعد على تكاثر هذه الأدواء .

الحالة العلمية وجمود الفكر الإسلامى :

كان لابد أن يصاب هذا الجانب بما أصيب به غيره من جوانب الحياة ، فكان حتما أن تتدهور الحياة العلمية وأن تصاب بالجمود والتخلف فسيطر الجهل ، وسادت الخرافة وخربت العقول ، وفسدت النفوس ، ولم يكن يطمع الحاكم العثمانى فى أكثر من هذا فالجهل والإستبداد صنوان كما قال الكواكبى « لا يخفى على المستبد أن لا إستعباد ولا إعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط فى ظلام جهل وتيه عماء .. فالعلم والإستبداد ضدان متغالبان ، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها فى إخفاء نور العلم وحصر الرعية فى حالك الجهل[١] .

وقد كشف ما صنعه السلطان سليم عن حقيقة نوايا الحاكم العثمانى فقد عمد هذا الحاكم إلى طائفة من نواب القضاة والشهود وأرسلهم إلى أسطنبول ومنهم القاضى شمس الدين الحلبى أحد نواب الشافعيين ، والقاضى شهاب الدين بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة . وكانت هذه واقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يحدث لها فى مصر مثيلا من قبل ، فهى عبارة عن أسر المسلمين ونفيهم إلى أسطنبول »[٢] .

ولقد تدهور التعليم وإنحسر ظله ولم يبق منه إلا بصيص خافت يطل من الأزهر والكتاتيب المنتشرة فى القرى حيث إن المدارس والمعاهد التى كانت قائمة مزدهرة فى القاهرة زمن الأيوبيين والمماليك أصابها الإضطراب فضاعت مواردها حتى بيعت شبابيكها وأبوابها وصار بعضها زريبة أو حوشا[٣] . ولم يكن فى مقدور الأزهر – وهو يمثل الفكر الإسلامى فى هذه الفترة – أن يساهم بأكثر مما قدم ، فقد كان يعيش فى ظلمة حالكة حافلة بكل أنواع البدع والخرافات وكان لابد أن يتأثر بذلك كله سواء فى مادته العلمية أم فى طريقة التدريس أم فى نوعية المعلم وأخلاقه .

---

(١) الكواكبى ، طبائع الإستبداد (الأعمال الكاملة للكواكبى لمحمد عمارة) .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ص ١٠٩٧ .

(٣) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ١ القاهرة : ١٣٠٦هـ ص ٨٧ وما بعدها .

مظاهر الجمود :

لقد قدم الجبرتى وهو أحد مؤرخى هذه الفترة صورة صادقة لجمود الفكر الإسلامى وتخلف الحياة العلمية ومن مظاهر هذا الجمود :

(أ) انفصال العلم عن الحياة :

وقد ذكر الجبرتى فى حوادث ١١٦٣ هـ أن مقابلة جرت بين أحمد باشا المعروف بكور وزير والذى تولى أمر مصر فى ذلك الوقت – وكان من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية – وبين أقطاب العلماء الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر (تولى مشيخة الأزهر من ١٧٩٣ – ١٨١٢ م) والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا لا نعرف هذه العلوم فتعجب وسكت .

ودخل الشيخ الشبراوى على الباشا يحادثه فقال له الباشا : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع العلوم والفضائل ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » . قال الشيخ : « هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف » فقال : « وأين هى ، وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئا ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، ونبذتم المقاصد ؟ فقال له : نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم ، وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار فقال له : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصلاة ، والأهلة ، وغير ذلك . فقال : نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة أو حسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية . وأهل الأزهر بخلاف ذلك وغالبيتهم فقراء واخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك . فقال : وأين البعض ؟ فقال : موجودون فى بيوتهم يسعى إليهم ، ثم أخبره عن الشيخ الوالد (والد الجبرتى) وعرفه عنه ، وأطنب فى ذكره ، فقال : ألتمس منكم إرساله عندى ، فقال : يا مولانا إنه عظيم القدر ، وليس هو تحت أمرى . فقال : وكيف الطريق

إلى حضوره ؟ فقال : تكتبون له ارسالية مع بعض خواصكم فلا يسعه الإمتناع ففعل ذلك وطلع إليه ، ولبى دعوته ، وسر برؤياه . واغتبط به كثيرا ، وكان يتردد عليه يومين فى الجمعة هما السبت والأربعاء ، وأدرك منه مأموله . ويقول الجبرتى ، وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشرقاوى كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فإنه لولا وجودك كنا جميعا عنده حميرا .

فالعلوم كما هو واضح من خلال هذه المحادثة بعيدة عن الحياة لا تعالج الواقع أو تخدم ضرورات العصر وحاجاته ، ولا شك إن هذه سمة من سمات الجمود فى الفكر الإسلامى وإمارة من إمارات تخلف الحياة العلمية ، فالإسلام ليس دينا فقط بل هو دنيا أيضا كما يدعو للآخرة ويرغب فيها يدعو للدنيا ويحث عليها قال تعالى ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ .

(ب) التعقيد والتقليد وعدم الإجتهاد والتجديد :

ومن مظاهر جمود الفكر الإسلامى وتخلف الحياة العلمية ذلك التعقيد وهذا الركود الذى عرفت به الحياة العلمية فى ذلك العصر ، ولقد فطن لذلك الشيخ حسن العطار أحد شيوخ الأزهر فعاب هذا وانتقده ودعا إلى نبذه وأخذ يلفت نظر الأزهريين إلى الواقع الثقافى والتعليمى الذى يجب أن يعيشوا فيه ، وأخذ يدعوهم إلى ضرورة التزود بالعلوم العصرية الحديثة كالفلسفة والعلوم الطبيعية ونبذ هذه الكتب البالية من متون وشروح وتعليقات على الشروح وتلخيصات ، وينعى عليهم كيف أن القدماء مع رسوخ قدمهم فى علوم الشريعة كانوا لا يألون جهدا فى طلب المعارف الأخرى ، أما الآن « فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة ، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون والمستجدون من كلامهم نكررها طول العمر ولا تطمع نفوسنا إلى النظر فى غيرها حتى كأن العلم إنحصر فى هذه الكتب فلزم من ذلك أنه إذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى جمع الجوامع فلا أصل لها ، أو نكته أدبية قلنا هذا من علم أهل البطالة ، وهكذا فصار العذر أقبح من الذنب[1] .

---

(١) أحمد تيمور ،أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة : لجنة نشر المؤلفات التيمورية ١٩٦٧م ، ص ٣٠ ، وانظر أيضا محمد عبد الغنى حسن ، عبد الله فكرى – أعلام العرب عدد ٤٢ .

ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح رضوان الله عليهم وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشروح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا إلى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريرا فتحصل عندهم أصل المصنف ، وشرح ، وشرح شرح ، وشرح شرح الشرح . وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام إلى المعانى الأصلية وإضطربت المباحث ، وإحتلت التراكيب ، وتعقدت العبادات ، واختفى مراد المصنف[١] .

وكتب « بورنج » فى تقريره عن التعليم فى المعاهد الدينية : إن التعليم فى هذه المعاهد قليل الجدوى ، بل إنه ليهبط فى مستواه حتى يبلغ من التفاهة حدها الأقصى ، فقلما يلقى درس فى الأخلاق ، أما الآيات القرآنية التى تحض على الفضائل فإن حظها من الذكر والتفسير أقل كثيرا مما تحظى به آيات تتصل بالأمور الشكلية فى الإسلام فالمسائل التى يحتدم حولها الجدل ، فتعتبر على أعظم جانب من الأهمية ، حتى إن التوصل إلى حلها قد يضفى على العلماء شهرة واسعة هى البحث فى مدى الفساد الذى يجعل الماء غير صالح للوضوء ، واعراب ما يتلى من آيات ، وقداسة الجهات المختلفة بالقياس إلى بعضها البعض[٢] .

(جـ) الفهم الخاطىء لعقيدة القضاء والقدر :

ومع جمود الفكر وسيطرة الجهل كان الفهم الخاطىء لعقيدة القضاء والقدر ، فخلط بين التوكل والتواكل مما أشاع فى المجتمع روح الكسل والخمول والإذعان للحاكم والإستسلام للشعوذة والخرافة .

يقول « بورنج » كل ما يحدث فى بلاد الشرق خاضع إلى حد كبير للمذاهب الشائعة عن عقيدة القضاء والقدر ، وكل تغيير فى سبيل الإصلاح إن هو إلا مهاجمة لتلك العقيدة المسيطرة على العقول ، فجميع الأنظمة والأعمال أساسها مبدأ دينى ، هو أنه ما دامت إرادة الله فوق كل شىء فلابد من نفاذ هذه الإرادة ، ومن ثم أصيبت جهود الإنسان بالشلل وعوطفه بالجمود[٣] .

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجى ، الأزهر فى ألف عام جـ ١ ، القاهرة : المطبعة المنيرية ١٩٥٥م ص ١٧٨ .
(٢) محمد فؤاد شكرى . بناء دولة مصر ، ص ٦٦٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٦٩٤ .

مال المصريون إلى الكسل والإرتماء فى أحضان الخمول والدعة فلم يعودوا يهتمون من شئونهم إلا بما يتعلق بحاضرهم حتى إنهم ليشبهون لصوص نسابلى فلا يحركون ساكنا إلا إذا عضهم الجوع بنابه[1] .

ولا شك أن لهذا الفهم الخاطىء أثره فى وضع المرأة المصرية وتربيتها إذ كان عليها أن تستسلم لقدرها وأن ترضى بحظها حبيسة فى الدار فريسة للجهل والإستبداد .

(د) الميل للبدع والأباطيل :

لقد انعكس الجمود على الواقع الإجتماعى الذى عاش فيه الفكر الإسلامى وعاشته المرأة المصرية فأصبح هذا الواقع مهيأ لتقبل الخرافات وتصديق حيل الشعوذة وصارت الطريقة الخرافية منهجا للثقافة السائدة يذكر الجبرتى فى حوادث ١٧٨٩م مثالا لذلك فيقول : فى ذلك العام أصيبت الدولة العثمانية ببعض الهزائم فى حروبها فقامت بإرسال منشور إلى مصر تدعو فيه إلى ضرورة قراءة البخارى فى الأزهر حتى يتم النصر للسلطان ، وأمر الباشا بتقرير عشرة من المشايخ من المذاهب الثلاثة يقرأون البخارى كل يوم ، ورتب لهم كل يوم مائتى نصف فضة لكل مدرس عشرون نصفا من الضربخانة وأوعدهم بتقريرها لهم على الدوام بفرمان .

ووصل حد الجهل إلى إدعاء النبوة فيذكر الجبرتى أنه فى أوائل رمضان سنة ١١٤٧هـ ظهر بالأزهر رجل يدعى النبوة ، فاحضر بين يدى الشيخ أحمد العمارى ، فسأله عن حاله ، فقال الأزهرى : أنه كان فى شربين فنزل عليه جبريل ، وصعد به إلى السماء ليلة ٢٧ رجب وأذن جبريل ، فصلى الأزهرى ركعتين ، والملائكة من خلفه ، فلما فرغ من صلاته أعطاه جبريل ورقة ، وقال له : أنت نبى مرسل » ، فأنزل وبلغ الرسالة ، وأظهر المعجزات وإتهمه الشيخ العمارى بالجنون ولكنه أصر على أنه عاقل ، فضربه الأزهريون وأخرجوه من الأزهر ، ثم سمع به « عثمان كتخبرا » فأحضره وسأله فقال ما قاله ، فأرسل إلى المارستان وبعد أيام طلبه الوالى (عثمان باشا) الحلبى لكنه أصر على رأيه ، فدعا الوالى العلماء فأمروا بقتله فقتل ، وهو يقرأ قوله تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ .

---

(١) كلوت بك ، (تعريب مسعود) ، لمحة عامة إلى مصر ، ط ٢ ص ٥٥٢ .

ومما يتصل بذلك التوسل بالأولياء فلقد دفع الجهل وضيق الحال إلى التوسل والإعتقاد فى بعض الناس بأنهم أولياء فيقصدونهم أحياء أو يتمسحون بقبورهم أمواتا ، ويسجل الجبرتى قصة البكرى التى توضح هذا المسلك ، ذلك أنه قد ذكر أن « على البكرى » كان مجذوبا ، وكان يمشى بالأسواق عريانا مكشوف الرأس والسوأتين غالبا ، وكان لهذا المجذوب أخ فقير فعندما رأى ميل الناس إليه واعتقادهم فيه حبسه فى داره وألبسه ثيابا ، وأشاع عنه أنه قطب ، وأنه يطلع على الغيب ، ويبرىء المريض ، ويفرج الكروب فأقبل عليه الناس وخاصة نساء الأمراء والكبراء فجمع أخوه ثروة طائلة من وراء ذلك ، وعندما مات هذا الرجل دفنه أخوه بضريحه الحالى فكان يحضر إليه المقرئون والمداحون والمنشدون ورجال الطرق فيقيمون الحضرات وينشدون الشعر فى مدح القطب البكرى ويرقصون ويصرخون ، ويمرغون وجوههم على شباكه ، ويفركون أيديهم فى الهواء المحيط به ويمسحون به وجوههم .

إلى هذا الحد بلغ الجهل بالناس ووصل التخلف فى الحياة الفكرية للمجتمع ، وما ذلك إلا بسبب العوامل التى سبق الحديث عنها .

(هـ) فساد الخلق :

على أن الجهل قد صاحبه فساد فى الخلق وسوء فى القدوة وهذا شىء طبيعى فى حياة فكرية متخلفة . وقد تحدث الجبرتى عن أخلاق علماء الأزهر الشريف فى أيامه وقال : أنهم كانوا يرتكبون الأمور المخلة بالمروءة المسقطة للعدالة ، فقد كانوا يجتمعون فى مجالس اللهو والغناء ، ويقومون بإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله بمسمع من النساء والرجال وعوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى ، وهو يخاطب رئيسة المغانى « ياستى » حضرة شيخ الإسلام والمسلمين ، مفيد الطالبين ، الشيخ العلامة فلان منه كذا ، وكذا من النصيفات الذهب قدر مسماه كبير ، وجرمه قليل ، نتيجته التفاخر الكاذب وإزدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين أقتدوا بهم فى فعل المحرمات كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاه مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد فى كل مجمع[1] .

---

(١) الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ ٤ ، القاهرة : المطبعة الأهلية ١٣٢٢هـ ، ص ٦٩ .

وبعد هذا العرض لهذه الحوادث المختلفة نستطيع أن نقف على معالم التخلف الذى أصاب الفكر الإسلامى بفعل العوامل الثقافية التى سلف الحديث عنها . ويمكن إيجاز هذه المعالم فى الآتى :

١ – جمود المادة العلمية وركودها بحيث صار من السهل أن يختلط بالعلم الحقيقى ما ليس منه فتعلق به أمور الشعوذة والخرافات .

٢ – الإنفصال عن علوم الحياة التى تتصل بسلوك الإنسان وحياته ، والإهتمام فقط بالعلوم الدينية واللغوية واعتبار العلوم الدنيوية من إختصاص الأجانب الكفار ، واعتبار بعض منها يدخل فى نطاق السحر الذى حرمه الدين ، فعلم الفلك قد اختلط بعلم التنجيم وعلم الكيمياء اختلط بتحضير الذهب وسحر المعادن وصناعة السموم .

٣ – إنتشار الخرافات والأخذ بالجدل السوفسطائى والتمسك بالأساليب اللفظية والشكلية واختلاق أسباب وعلل وهمية لا وجود لها إلا فى الخيال مع الإنصراف عن حقيقة العلم وجوهره .

٤ – إغلاق باب الإجتهاد والوقوف فقط عندما خلفه القدماء حتى وإن لم يساير الحاضر ، وجعله شيئًا مبجلاً لا يصح مساسه أو توجيه النقد إليه . ونحن نعلم أهمية الإجتهاد فى التشريع الإسلامى فهو أساس من الأسس التى يقوم عليها هذا التشريع ، ولشد ما نعانى حتى الآن من محاولة فتح هذا الباب وخاصة بعد أن انفتحت علينا الحياة وغشيتنا بسيل من المنجزات العلمية التى تتطلب رأى الدين فيها ، ولقد كان تقليد القدماء وعدم التجديد وترك الأخذ بالإجتهاد سببًا هامًا من الأسباب التى أدت إلى تدهور المجتمع الإسلامى وتخلف الفكر الإسلامى ، ذلك أنه خلق موجة من التناقضات والإضرابات وأوجد طائفة من المشكلات السياسية والإجتماعية والإقتصادية جعلت الإسلام يتهم بالجمود والرجعية . وسيتضح هذا جليا فى تربية المرأة ، وسنرى النقد الذى يوجهه الأجانب إلى الإسلام وإتهامه بالتخلف بسبب عدم الأخذ بمصدر من مصادر التشريع وهو الإجتهاد الذى يكفل للإسلام المرونة والحيوية والقدرة على مواكبة الحياة العصرية .

٥ – سوء خلق بعض المهيمنين على الفكر الإسلامى فى ذلك الوقت واحتدام الحسد والحقد والبغضاء فيما بينهم ، وقد ظهر هذا فى موقف السيد عمر مكرم زعيم الشعب

حيث حقد عليه زملاؤه ونفسوا عليه المكانة التى تبوأها لدى الشعب ، فما زالوا يوقعون به ويكيدون له لدى محمد على حتى استطاع الأخير أن يحقق غايته باقصائه عن الزعامة ونفيه إلى دمياط .

٦ – عدم الإهتمام بالمدارس من حيث بناؤها أو إصلاحها حتى صار بعضها حوشا أو زريبة وعدم الإهتمام بحال المعلمين بها .

٧ – قلة المال وشدة الفقر مما دفع الناس إلى الإنصراف عن التعليم والإتجاه إلى حرف أخرى تكفل لهم لقمة العيش فكان منهم الوراق والنحاس ، والنساج .. إلى غير ذلك من المهن .

هذه تقريبا هى أهم معالم الجمود التى كانت وليدة السياسة الإستبدادية ، والتى كانت صنيع العزلة والإنطواء عن العالم الخارجى بكل ما يموج به من تيارات حضارية .

وكان لابد أن يكون لهذا أثره فى وضع المرأة وتربيتها ، فالعوامل الثقافية متداخلة ومتشابهة ، الوضع السياسى ينعكس على الوضع الإقتصادى لينعكسا معا على الواقع الإجتماعى ليؤثر الجميع فى الفكر فيجمد الفكر وتتجمد بقية الأوضاع . تلك هى دينامية التاريخ وحركة الفكر .

ولا يمكن القول بأن العثمانيين كانوا مسلمين ملتزمين بما يمليه عليهم الإسلام ، فقد كانوا يفتقدون روح الأخوة الإسلامية وما تفرضه هذه الروح من تضامن وتعاون ، لقد شاهدوا عرب الأندلس وهم يشردون من ديارهم ويضطهدون فى دينهم ، ومع هذا لم يمدوا لهم يد المعونة مع أنهم قادرون عليها ، بل إن السلطان « سليمان القانونى » حالف « فرانسوا الأول » ضد مسلمى الأندلس ، وإذا كان الناس قد تعلقوا بالخلافة العثمانية فليس لأنها تحقق لهم السعادة والإستقرار ، فقد كان العثمانى صورة مجسدة للعسف والإستبداد . ولكن تعلق الناس بالخلافة كان مبعثه إنها تعنى إتحاد المسلمين ضد الأخطار الخارجية والإعتداءات الأوربية ، خاصة وأن صورة الحروب الصليبية كانت ما تزال راسخة فى الأذهان ، وأن صورة صلاح الدين هازم الصليبيين كانت ما تزال ماثلة أمامهم ، فالخلافة لم تكن إلا وسيلة لغاية هذه الغاية هى البقاء الإسلامى أو الوجود الإسلامى ضد الهجوم الأوربى . ولعل هذا مما عمق نظرة العزلة وتجنب كل ما هو أوربى حيث اسطبغ بسبغة العدوان فالعلاقة بين الشرق

والغرب كانت علاقة توجس وحذر وتشكك في النوايا وقد سبق أن قلنا أن الناس كانوا ينظرون للعلوم المادية نظرة كفر والحاد لأنها وردت إليهم عن طريق الغرب . بل كانوا يقولون « إن تعليم البنت القراءة والكتابة مكروه عند الله ، ولا يفعل هذا العمل المشين إلا الكفرة من بنى الإنسان ، كما أن النبى محمدا ﷺ كما ذكر لها الأفندى – زوجها – يلعن المرأة التى تفك الخط »[1] .

ونتيجة لهذه الحساسية حساسية الشرق فى علاقته بالغرب لم يكن من السهل أن يقتنع الناس بكل ما ادعاه نابليون فيما بعد وما حاول أن يقوم به من إصلاحات أعطاها كلها الصبغة الإسلامية كما سنرى فقد كانوا ينظرون إليه على أنه الحفيد الصليبى والمعتدى الدخيل ، وقد كان فى مقدور الناس أن يتحملوا ظلم واستبداد حكامهم ولكن لم يكن فى وسعهم أن يضحوا بدينهم وعقيدتهم فهى سر بقائهم ووجودهم .

ولا نعجب لهذه الحال فأوربا فى العصور الوسطى مرت بما يماثلها فقد كان سلطان الدين قويا ليس فقط إزاء الشعب بل إزاء الملوك أنفسهم وكانت سلطة البابا هى أقوى السلطات التى يخشاها الملوك والأباطرة ويكفى أن تغضب الكنيسة على ملك من الملوك لتطرده من رحمتها ولتجعل الشعب يثور عليه فينتزع منه الملك ومن ورثه من بعده ، وكم أتاح هذا الإستبداد الدينى الفرصة لظهور العديد من الخرافات والأباطيل فقد ظهر صك الغفران وكرسى الاعتراف وحورب العلم وصودر كل الفكر الحر ونودى بإعدام كل من تسول له نفسه الخروج على تعاليم الكنيسة ، وكانت قراءة الكتاب المقدس وتفسيره من اختصاص رجال الدين وحدهم بينما كانت محرمة على الشعب .

فالظروف فى العصر العثمانى تشبه إلى حد كبير ظروف أوربا فى العصور الوسطى فكلتاهما اخضع لنواميس واحدة ، ونتوقع أن يكون حال المرأة فى أوربا فى هذه العصور مماثلا لحالها فى العصر العثمانى ، وإذا كانت أوربا قد نهضت بفضل حركة التجديد الدينى التى قادها « مارتن لوثر » (ت ١٥٤٦م) . فمن المؤكد أن يستيقظ الشرق أيضا بفضل حركة التجديد الإسلامى التى أسفر عنها اتصال الشرق بالغرب .

---

(١) إجلال خليفة ، الحركة النسائية الحديثة ، ص ٢٤ .

نواة الإصلاح الدينى :

على أن تلك العزلة التى خلقت هذه الحساسية إزاء الغرب لم تكن لتحول دون وجود النواه الدينية التى هى أساس لكل إصلاح ، فأحيانا كان يتخذ الشعور الدينى مساره الصحيح فيؤدى دوره فى الحياة ، نلمس ذلك فى الموقف الوطنى الذى وقفه السيد عمر مكرم من الوالى العثمانى « خورشيد باشا » ، فقد دار بين زعيم مصر الأول وبين مندوب الوالى هذا الحديث – بعد أن تعددت الشكاوى وكثرت المظالم وبلغ الإستبداد مبلغه – لقد سأل مندوب الوالى : كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فقال السيد عمر مكرم : « ألا فاعلم أن أولى الأمر ، هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة . بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه »[1] . هذا موقف دينى وطنى معا يؤكد وجود البذرة الإسلامية وتوقف نموها على المناخ السليم .

حادثة أخرى عبرت عن هذا الشعور ، وقد سجلها الجبرتى فى حوادث ١٧١١م . فذكر أن رجلا روميا كان يجلس ليعظ الناس بجامع المؤيد وتكاثر عليه الناس لسماعه ، وفى إحدى جلساته تعرض لذكر الأولياء وكراماتهم وأضرحتهم . وأنكر ما يفعله المصريون فى هذا الصدد بل وعده كفرا ، ورفض ما كان ذائعا من أن الإمام الشعرانى يطلع على اللوح المحفوظ ولقد خرج أتباع هذا الرجل وهم يحملون الأسلحة والنبابيت بعد صلاة التراويح ويتساءلون أين الأولياء ؟

وبلغ الأمر العلماء بالأزهر فكتبوا فتوى أجاب فيها الشيخ أحمد الغزاوى ، والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، ونصحوا بأنه يجب على الحاكم أن يزجر هذا الواعظ الرومى ، فأخذ البعض هذه الفتوى وعادوا بها إلى الواعظ فلما قرأها غضب وقال : أيها الناس إن علماء بلدكم أتوا بخلاف ما ذكرت لكم . وانى أريد أن

(١) محمد فريد أبو حديد ، سيرة السيد عمر مكرم ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ١٤٦ .

أتكلم معهم وأباحثهم فى مجلس قاضى العسكر فهل منكم من يساعدنى على ذلك فينصر الحق ؟ فاستجاب له عدد غير قليل قدر بما لا يقل عن ألف شخص وساروا معه فلما شاهد الحاكم ذلك أنزعج واضطر أن يكتب لهم بأن فتوى العلماء باطلة ، وفى اليوم التالى ذهب الناس كعادتهم للإستماع لهذا الواعظ ، ولكنهم لم يجدوه ، وعلموا أن القاضى منعه من الوعظ ، فثار الناس وذهبوا إلى بيت القاضى وسألوه عن الواعظ فأنكر فطلبوا منه أن يصحبهم إلى الباشا حتى يتبينوا حقيقة الأمر ، وهددوه بالقتل ، وفعلا تم لهم ما أرادوا وعاد الواعظ لمكانه .

وهذا يدل على أن نواة الإصلاح الدينى كانت موجودة وكانت تفتقد فقط الرواء الذى يكفل لها النمو والإزدهار .

وننتقل الآن إلى معالجة تفصيلية لوضع المرأة المصرية وتربيتها فى ظل هذا العهد .

المرأة المصرية وتربيتها فى هذا العهد :

سنتناول المرأة فى هذا العهد من هذه الزوايا :

١ — الضيق بوجودها والنفور منها .

٢ — الأخطار التى تهددها فى حياتها الأسرية .

٣ — عزلتها عن الحياة وبعدها عن الواقع .

٤ — غايتها التعليمية .

الضيق بوجودها :

ما أن يبدأ البنت فى التقاط الأنفاس الأولى للحياة حتى تجد كل ما حولها يوحى بالضيق والخوف والكراهية ، وهنا يأخذ الحزن فى السيطرة على الوالد والوالدة بل ويثور الوالد أحيانا على زوجته مهددا لها بالطلاق أو بإتخاذ زوجة أخرى غيرها ، وكأنها هى المسئولة عن هذا الجرم أو هذه الجناية ، ويأخذ الناس فى مواساة الأسرة سائلين لها الصبر والعوض .

أما إن كان الوليد ذكرا فإن الصورة تختلف تماما ، فالسعادة تشمل الأسرة والبسمة ترتسم على الشفاه ، وتعمد الأسرة إلى إقامة الولائم والأفراح وتنطلق الزغاريد ويأخذ الناس فى تهنئة الوالدين بهذا الوليد .

وهناك بعض الأغانى الشعبية التى حفظها لنا الفولكلور الشعبى وهى توضح إلى أى مدى يكون التمايز بين الولد والبنت ، وإلى أى مدى كانت تضيق الأسرة المصرية بالبنت وتسر سرورًا بالغًا بإنجاب الذكر . ومن هذه الأغانى أغنية تقول :

هو .. هو .. هو .. هو ..
لما قالوا دى بنيه
هدموا الحجرة عليه
وجابوا لى البيض بقشره
وبدال السمن ميه

هذا للبنت . أما للولد فالأغنية تقول :

لما قالوا ده غلام
ارتفع بختى وقام
وجابوا لى البيض مقشر
وعليه السمن عام

ويقال أيضا للبنت :

يا ضربه وإن جيتيها
على المغرب ما تخليها
وعلى التربه ونوديها
وفى التراب ونواريها

هذه وغيرها مما توارثته الأجيال لتوضح لنا إلى أى مدى كان نفور المجتمع من وجود المرأة وخاصة فى الريف ، وكان على المرأة أن تعيش هذا الواقع المرير من أجل التكفير عن جرم كونها أنثى . تقول مجلة المرآه الحسناء الصادرة فى سنة ١٨٩٦م فى وصف إستقبال البيت المصرى لولادة الأنثى : البنت فى هذه البلاد مرادفه للمصيبه ، يقول الواحد للآخر ولدت أيه إمرأة صاحبنا ؟ ويجيب الآخر وقد قلب شفته وكسر جفنه وهز رأسه « بنت » فيقول الأول وقد لاحت على وجهه لوائح الكدر : الله يساعده ، وذكرت أحدى الصحف الأوربية أنه يوجد فى مصر ثلاثة حيوانات فقط كافية لحاجات

أهلها وهذه الحيوانات هى : الجمل والثور والحمار ، ولكنه إذا جاز التوسع فى ذلك فقد يصح أن يضاف إليها حيوان رابع هو المرأة ، لأنها تشبه الجمل والثور والحمار كل المشابهة ، من حيث أن كل الشقاء واقع عليها ، وكل الصبر مطلوب منها ، ولكنها قد تختلف عن تلك الحيوانات بأنها تنفع ، ما تلك فلا[1] .

أسباب النفور :

وحين نحاول الوقوف على أسباب هذه الكراهية للبنت أو على الأقل التبرم بوجودها فسوف نجدها نفس الأسباب التى كانت لدى العربى الجاهلى ، وهى :

١ – السبب الإقتصادى .

٢ – السبب الإجتماعى .

السبب الإقتصادى :

والسبب الإقتصادى هنا له دوره الفعال فى الحط من كيان المرأة المصرية والزراية بوجودها حتى ليمكن القول بأنه أساس التمايز بين الجنسين وخاصة فى مجتمع زراعى مثل مجتمعنا . ولو تأملنا عصور الإقطاع التى مرت بها البشرية لوجدنا أن المرأة كانت مسلوبة الحرية والإرادة وهى وما تملك ملك لسيدها ، بل كان للنبيل الحق فى قضاء الليلة الأولى معها عند زواجها . وما ذلك إلا لأن المرأة لا تملك من القوة البدنية ما يمكنها من المشاركة فى العمل المضنى الشاق الذى يقوم به الرجل . ومن ثم فقد كانت البنت عبئا على الأسرة يضاف إلى أعبائها الكثيرة المرهقة فهى ليست بذات قيمة إقتصادية أو طاقة منتجة يمكن أن تساهم فى دخل الأسرة وتخفف من مسئولياتها ، أما الولد فهو رصيد إقتصادى هام يضاف إلى رصيد الأسرة ، وهو مورد ثابت يبقى حتى بعد التزوج فهو لا يستقل بمنزل عن الأسرة الكبيرة ، بل يكون واحدا من روافدها الإقتصادية ، ولعل هذا يعطى السبب فى وجود نظام البيوتات الكبيرة والإرتباطات الأسرية الواسعة التى نشاهدها فى الريف خاصة ، حيث تكون حياة الفرد رهينة بحياة الأسرة التى ينتمى إليها ولا يمكن له الإستقلال بذاته ، وهذا ما كان يحدث فى الجاهلية حيث كانت حياة الفرد متوقفة على حياة القبيلة ، ولم يكن يستطيع أن يستقل بنفسه ، فطبيعة الحياة كانت

(١) إجلال خليفة ، الحركة النسائية الحديثة ، ص ٤٣ .

تفترض الأقوى دائما ، والصراع الإقتصادى لم يكن ليبقى على الضعيف ، وهذا ما دعا الجاهلى إلى التخلص من البنت أو الإمساك عليها ولكن على مضض . فكان وأد البنات نتيجة للضغوط الإقتصادية أحيانا لذا حاربه الإسلام فقال تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ . ومما يذكر أن الرجل الهندى كان يخرج بناته عاريات تماما فيقفن وسط حلقة من الرجال بهدف بيعهن لمن يدفع أكثر .

وطبيعى أن يؤثر هذا فى مكانة المرأة حتى لقد ذكرت بعض الأساطير الهندية أن المبدع الإلهى « تواشترى » حين أراد فى البداية أن يخلق المرأة وجد أن المواد اللازمة لذلك قد نفذت كلها فى خلق الرجل ، فطفق يصوغها من النفايات المتناثرة التى تبقت من عمليات خلقه السابقة للكائنات الأخرى كالزواحف والحشرات والهوام[1] .

وسنرى كيف كان العامل الإقتصادى سببا وراء إحتراف الكثير من المطلقات والأرامل للبغاء . فالكيان الكريم للمرأة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تواجد الكيان الإقتصادى وتوفرت لها سبل الحياة الكريمة التى تضمن معها حريتها وحماية عرضها ، وقد سبق أن تحدثنا فى الفصل الأول عن الحقوق التى كفلها الإسلام للمرأة من مهر ونفقة وغير ذلك من أجل توفير الحياة الكريمة .

وإذا كنا نحن اليوم لا نرى – تقريبا – أثرا لهذا الضاغط الإقتصادى فذلك لأن طبيعة الحياة الأقتصادية قد تغيرت وتنوعت مجالات العمل بحيث أمكن للمرأة اليوم أن تعمل وأن تساهم فى دخل الأسرة وأن تتحرر من الرهبوت الاقتصادى ، وقد تبع هذا أن صارت تعتز بكيانها وتتمسك بحقوقها وتطالب بالمشاركة فى كل مجال حتى إنها قد تصل أحيانا إلى حد التطرف فيما تطالب به .

وقد يقال إن علم الاقتصاد يعد الخدمات إنتاجا ، فالخدمة التعليمية مثلا تعد من قبيل الإنتاج لأن التعليم يساعد على النهوض بالمستوى الإقتصادى لذا عد من مجالات علم الاقتصاد « إقتصاديات التعليم » . وعلى هذا فالبنت عندما تقوم بالأعمال المنزلية المختلفة فهى طاقة إقتصادية وهى ذلك تساهم فى الإنتاج . غير أن هذا لا يمكن التسليم به فى مجتمع يرى أن البنت قد خلقت خصيصا لخدمة المنزل والقيام بشئون الأسرة ، فهى بخدماتها هذه لا تضيف شيئا ولا تأتى بجديد . على أن الاقتصاد كان يعنى المادة

(١) زكى شنوده ، تاريخ الأقباط ، جـ ٧ ، ١٩٧٠م ص ١١١ .

لا الخدمة ، وفوق هذا فإن الخدمات التى تقوم بها فى بيت أسرتها رهينة بزواجها : فإذا ما انتقلت إلى بيت الزوجية كان هذا معناه أن الأسرة قد خسرت عضوا من أعضائها ، وفقدت جانبا من نشاطها ، والبعض حتى هذه اللحظة لا يرتفع بدور المرأة الإقتصادى ولا يقر كفاءتها مع الرجل أو قدرتها على أن تنتج بنفس القدر الذى ينتجه الرجل .

وهكذا فمن المنظور الإقتصادى يمكن أن نقف على أحد السببين الأساسيين لكراهية المرأة وعدم الحفاوة بولادتها ، أما السبب الآخر فهو السبب الإجتماعى .

السبب الإجتماعى :

وهذا السبب وثيق الصلة بسابقه ذلك أن أى إصلاح إقتصادى لابد وأن يتبعه إصلاح إجتماعى ، والتحكم الإقتصادى يعنى ضمنا التحكم الإجتماعى ، لقد ملك الإقطاعى والرأسمالى أكثر فكانت قبضته أقوى وسلطته أشد ، وملك الرجل فإنفرد وحده بالدخل فكانت سلطته مطلقه ورأيه لا راد له . وطبيعى أن يكون ذلك بسبب الجهل وعدم البصر للحقوق وإلا فلا تعارض بين أن ينفرد الرجل بالدخل وأن يكون عادلاً مع زوجته أو ابنته .

فالمرأة من الناحية الإجتماعية مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة مهيضة الجناح ، والضعف دائما سمة الهوان والذل ، ثم هى قد تكون وصمة عار للأسرة لا يزيلها إلا دمها ، وتربيتها بحاجة إلى الكثير من التشدد والتعنيف ومراقبتها بحاجة إلى كثير من الحذر واليقظة ، ومن سمات المجتمع المحافظ أن يكون على درجة عالية من الحساسية إزاء مسألة العرض حتى أن من يقتل فى سبيل الدفاع عن عرضه ليعد شهيدا .

هذه التبعات الإجتماعية إذا ما أضيفت للتبعات الإقتصادية فإنها تشكل خطرا يهدد كيان الأسرة ويعرضها للإنهياره وقديما ضاق العربى بوجود المرأة فقال ابن الرومى يرثى ابنة الحسيب :

لعل الذى أعطاك ستر حياتها

كساها من الذحد الذى هو أستر

ومعنى هذا القول أن القبر ستر للمرأة وكساء لها ، والواقع أن المرأة المصرية كانت رهينة محبسين : المنزل والقبر ، ولم يكن من حقها أن ترى نور الحياة خشية أن يفسدها

هذا النور ، وبلغت حساسية العرض إلى الحد الذى لا يصرح معه باسم المرأة ، بل يكنى عنها بأم فلان ، أو بجماعتى ، وكان التصريح باسم المرأة نوعا من الفحش والفجور ، وما زال البعض منا حتى الآن يرفض كتابة اسم أمه أو زوجته فى بطاقته الشخصية أو العائلية إمتدادا لهذا المفهوم الذى رسخ فى نفوسنا ، وقد يكون مفهوم الخطيئة الذى لصق بالمرأة مما ساعد على ترسيخ هذه الحساسية وتعميقها .

وهكذا من خلال هذا المنظور الإجتماعى نقف على السبب الثانى للنفور من وجود المرأة وإذا كان الزواج هو المجال الآخر الذى تنتقل إليه المرأة فلنحاول أن نتعرف على حالها فى الأسرة بعد أن بينا كيف كان النفور من وجودها والتخوف منه ، وهنا نصل إلى النقطة الثانية :

المرأة فى حياتها الأسرية :

سنتناول فى هذه النقطة ثلاثة جوانب تشكل المجال السرى للمراة المصرية فى ذلك العهد وهى :

الزواج – الطلاق – تعدد الزوجات

الزواج :

تصل المرأة المصرية إلى سن الإخصاب تقريبا فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها ويتم الزواج فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة رغم مخالفته للقانون الذى لا يبيح الزواج قبل سن السادسة عشرة . ويمكن تفسير الزواج المبكر فى ضوء السببين السابقين : الإقتصادى والإجتماعى ، فالمرأة هى مصدر القوة العاملة والطاقة المنتجة وطبيعة المجتمع الإقتصادية لأنها زراعية تفترض الكثرة فى الإنجاب والسرعة فيه ، أولا لمشقة العمل الزراعى القائم على القوة اليدوية وثانيا للنقص الشديد الذى يحدث فى القوة العاملة بسبب المرض والوفاه نظرا لعدم وجود الرعاية الصحية ، وثالثا لبساطة الحياة الريفية التى لا ترهق كاهل الأب أو تثقله بالمسئوليات .

على أن المرأة يمكن اعتبارها عبئًا إقتصاديًا يثقل كاهل الأسرة فتتخلص منه بالزواج بالإضافة إلى ما قد يفيده الأب من زواجها حيث يحصل على قدر من المال ممن جاء يبغى زواجها . ثم هى عار يجب ستره والاحتياط له . وقد تكون العزلة الصارمة بين الجنسين

مع عدم وجود مجالات ترفيهية ومع بساطة التكاليف الزوجية عاملا من العوامل التى تشجع على الزواج المبكر . وأخيرا فالزواج يعمل على ربط الأسر بعضها ببعض أو ربط الأسرة فيما بينها مما يمكنها من خلق ثقل لها وإتخاذها لمكانة بين غيرها من الأسر وهذا ما يناسب طبيعة المجتمع فى ذلك الوقت حيث كان يعتمد على العصبيات وهو أشبه بالمجتمع الجاهلى فى ذلك .

ونتيجة لهذا الزواج المبكر قليلا ما تبقى فتاة بعد سن السادسة عشرة فهى تكون أما فى الثانية عشرة وجدة فى الرابعة والعشرين ، وجدة لوالدة فى السادسة والثلاثين ، وجدة لجدة فى الثامنة والأربعين حسب قول كلوت .

يقول كلوت بك : « وبلوغ النساء المصريات الحلم فى تلك السن يؤدى غالبا إلى ذبول زهرة شبابهن بحيث لا يبعد أن ترى مصرية فى الخامسة والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم مالا يعرو المرأة الأوربية فى الخمسين من عمرها[١] .

ويتحدث « لين » عن كيفية حدوث الزواج فيذكر أنه كان يتم عن طريق الخاطبة ، وأحيانا تكون الخاطبة أثنتين أو أكثر ، وقد يصحب الخاطبة بعض قريبات العريس ، وأحيانا أخرى يتم عن طريق الدلالة التى يسمح لها بالدخول على الحريم ، وتقوم الخاطبة بالسؤال عما إذا كان للفتاة متاع ورثته عن أبيها ثم تأخذ فى الخطوات التمهيدية وتعمل على تحقيق التقارب بين العروس والعريس ، بعد هذا يقوم وكيلا الطرفين بقراءة الفاتحة ، وفى اليوم التالى يدفع المهر ويتم القران ، بعد ذلك تنتظر العروس حوالى ثمانية أيام أو عشرة ، وخلال هذه الفترة يرسل العريس مرتين أو أكثر بعض الفاكهة أو الحلوى وأحيانا يرسل لها شالا ، وفى ليلة الزفاف تعد الحناء فى شكل عجينة ويأخذ الزوج بعضا منها وهى فى يدها ثم يعطيها النقوط[٢] .

وواضح من هذا أنه زواج لم يكن ليسمح فيه بالحرية والإختيار وابداء الرأى بل كان من العيب والفجور أن تصرح الفتاة برأى أو ترفض من إرتضاه وليها لها زوجا ، وما كان لها أن تخالف أو تعارض فهذا معناه خدش فى عرضها وريبة فيه ، ولذا فهى مطالبة

---

(١) كلوت بك ، (تعريب مسعود) ، لمحة عامة إلى مصر ، ص ٦٠٧ .

(٢) Lane . E . The mannars and customs of the modern Egyptions , London & New-York , 1963 . p .p 162 , 172 .

بإثبات بكارتها عن طريق الزواج ، وإن هى عارضت صارت حياتها عرضة للخطر ، هى مجرد بضاعة جامدة لا تعى من أمرها شيئا ، تقوم كأية سلعة من السلع ، ومبالغة فى إثبات سلامة السلعة وحفظها كان يتم فض البكارة بطريقة غير إنسانية . ومن نافلة القول أن نذكر مخالفة هذا لما نادى به الإسلام ودعا إليه وقرره حيث حدد الغاية من الزواج بقوله تعالى : ﴿هو الذى خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وحدد الخطوات السليمة التى تكفل بلوغ هذه الغاية وتضمن حياة سعيدة ومجتمعًا قويًا ناهضًا .

غير أن طبيعة المجتمع وما عاشه من ظروف سياسية وإقتصادية وإجتماعية وفكرية هى التى أدت لهذا التخلف فظهرت أوضاع شائنة وأمراض إجتماعية كالطلاق وتعدد الزوجات وغير ذلك مما يرفضه الإسلام وينكره .

الطلاق :

فى الفصل الأول تحدثنا عن حكمة الإسلام فى الطلاق ، وقلنا أنه لم يشرع إلا لدرء المفاسد والأخطار التى قد تنجم عن تأزم العلاقة بين الزوجين ، ومع أنه فى حد ذاته حلال إلا أنه أبغض أنواع الحلال إلى الله كما قال ذلك الرسول الكريم : قال عليه السلام : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز منه العرش » . وذكرنا أن الإسلام قد أوصى بوسائل أخرى سابقة على الطلاق ، علها تفلح فى إصلاح ذات البين فأوصى بالصبر وحسن النية قال تعالى : ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾ ، وقال تعالى : ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير﴾ ، وقال تعالى : ﴿فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن﴾ . وقال تعالى : ﴿فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾ . من هذا يتضح أن الإسلام نوع فى الوسائل وعدد فيها ، فما لا تصلح فيه وسيلة تصلح فيه أخرى ، حتى إذا ما استعصى الداء وعز الدواء كان الحسم والبتر ، وكان الطلاق ، وكان ثلاثا كفرصة أخيرة فى الإصلاح . هذه هى نظرة الإسلام موجزة نحو الطلاق ، وحتى يكون التطبيق سليما فلابد أن يكون هناك الإحساس بالإلتزام والوعى بروح الإسلام ، وفهم الغاية من هذا التشريع ، وهذا يفترض صفاء فى النفس وحرارة فى الإيمان مع حسن السياسة والتصرف .

الطلاق ، وغلوا فيه ، ورأوه وسيلة يتنصلون بها من مسئولياتهم تجاه أهليهم وأولادهم دون أن يضعوا فى اعتبارهم الأضرار البالغة التى تلحق بهم وبمجتمعهم من جراء ذلك ، ولعل السياسية الإستبدادية هى التى قتلت فى الأفراد روح الجماعة ونمت فيهم نزعة الأنانية فجعلتهم لا يفكرون إلا فى ذواتهم دون الإهتمام بالآخرين ودون تقدير لما سينجم عن الطلاق من الأضرار البالغة ، وقد بلغ من سوء إستخدام هذا العلاج أن ظن البعض بالإسلام سوءا فوجهوا إليه التهم ، ونسبوا إليه الجمود والإفساد ، مع أن الإسلام برىء من ذلك ، وما نسمعه اليوم من مطالبة المرأة بتعديل قانون الأحوال الشخصية إن هو إلا رد فعل لما حدث فى الماضى فى عصور التخلف ، وكما حدث فى الماضى نوع من المغالاة والتطرف – عن حماقة – فى إستخدام الطلاق فربما تنطوى دعوة التعديل هذه على نوع من المغالاة فى منع إستخدامه .

ومن الوسائل التى لجأ إليها البعض للتحايل على الطلاق الإستعانة بالمحلل ، يقول « لين » إن الرجل قد يطلق زوجته مرة واثنتين ، وفى كل مرة يعيدها إليه بدون مراسم أو طقوس ، وحتى إذا ما طلقت ثلاثا فإنه يستعين بالمحلل .

ويذكر « قاسم أمين » إحصائية إستخرجها من دفاتر المحكمة الشرعية عن عدد حالات الطلاق والزواج الذى حصل فى عموم القطر المصرى فى سنة ١٨٩٨م :

سنة	زواج	طلاق
١٨٩٨	١٢٠,٠٠٠	٣٣,٠٠٠

ويعلق قائلا : ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث[1] . ولعل مما ساعد على سوء استخدام الطلاق وكثرة وقوعه ليس فقط جهل الرجل وعدم وعيه ، بل جهل المرأة أيضا وسوء تربيتها مما أدى بها إلى أن تخضع لهذا الوضع الشائن وترضى به ، فلو أحسنت تربيتها وبصرت بحقوقها وكفلت لها الحياة الكريمة لأمكن الحد من هذه الظاهرة ، فالرجل هو القوى العائل والمرأة هى الضعيف المعول ، ومن هنا كان من السهل على الرجل أن يحتال لنفسه ويختلق من الوسائل ما يشبع به رغباته ونزواته .

---

(١) قاسم أمين ، تحرير المرأة ، ط ٢ ، القاهرة : مطبعة روز اليوسف ١٩٤١م ص ١٦٠ .

ومن الوسائل التى لجأ إليها الرجل حتى الآن – بيت الطاعة – فهو وسيلته غالبا إلى إذلال المرأة واخضاعها ، ومع بيت الطاعة يضيع الهدف الأسمى من الزواج وهو المودة ليحل محلها التباغض والتشاحن .

والإسلام فى أيامه الأولى وعصوره الزاهرة لم يعرف شيئا إسمه بيت الطاعة ولم يكن له وجود فى تلك العصور ولكنه وليد العصر التركى الذى كان ينظر للمرأة على أنها كم مهمل فى الحياة ومجرد متاع ولهو[١] .

بعد هذا نتنقل إلى ما يصاحب الطلاق ويلازمه وهو تعدد الزوجات .

تعدد الزوجات :

أوضحنا فى الفصل السابق حكمة الإسلام فى تعدد الزوجات وبينا أن تعدد الزوجات إنما هو علاج لحالات معينة ، وذكرنا أيضا أن الإسلام حين أباح التعدد فإنه قد وضع الضمانات الكفيلة بأن تحفظه من التلاعب والإستهتار ، وأن تضعه فى أعلى درجات المسئولية ، فالقرآن الكريم يقول : ﴿فإن خفتم إلا تعدلوا فواحدة﴾ وفى موضع آخر يقول ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ . النساء : ١٢٨ .

معنى هذا أن التعدد مشروط بالعدل ، وأن العدل شيء متعذر التحقيق ، يقول الشيخ « محمد عبده » فى تفسير هاتين الآيتين :

إن من تأمل الآيتين علم أن اباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر مضيق فيه أشد الضيق كأنه ضرورة من الضرورات التى يتاح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور ، وإذا تأمل المتأمل مع التضييق ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة نشأ فيها تعدد الزوجات ، فإن البيت الذى فيه زوجات لزوج واحد لا يستقيم له الحال ولا يقوم فيه نظام بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت ، كأن كل واحد منهم عدو للآخرين ، والأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة[٢] .

---

(١) درية شفيق ، المرأة المصرية ، القاهرة : مطبعة مصر ١٩٤١م ص ٤٣ ،

(٢) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار (سورة النساء الآية ٣ ، ١٢٩) .

ويذكر الإمام محمد عبده : « أن التعدد إذا كان سائغا فى صدر الإسلام فذلك لفوائده التى أهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ، أما اليوم فهو غير مستحب ويرى أنه لو ربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن لما كان هناك ضرر من تعدد الزوجات ، أما والأمر على ما نرى ونسمع فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة خصوصا الحنفية فهم لا ينكرون أن الدين انزل لمصلحة الناس[١] .

ولقد ذكرنا أن العدل مقصود به العدل فى الإنفاق لا العدل فى العاطفة وهو ممكن الحدوث ، وإلا فلا مسوغ لاباحة التعدد ما دام مشروطا بمستحيل . غير أن الناس وخاصة فى العصر العثمانى قد بلغوا حدًا كبيرًا فى التحايل على الشريعة وتفسيرها لأغراضهم وأهوائهم مما دفع البعض إلى إتهام الإسلام بأنه دين الشهوة والرغبة .

يقول « لين » : يوجد رجال تزوجوا على مدى عشر سنوات عشرين وثلاثين مرة وأحيانا أكثر . ويقول : لقد سمعت أن الرجل عادة ما يتزوج كل شهر مرة فأى شخص يمكنه أن يختار الفتاة من الطبقة الفقيرة فى شوارع القاهرة أو يختار أرملة أو مطلقة مقابل أن يدفع لها حوالى عشرة شلنات ، وعندما يطلقها لا يعطيها أكثر من ضعف المبلغ[٢] .

« ولين » فى قوله هذا يشير إلى بعض الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة حيث تحتاج المرأة لمن يعولها ويحميها من الجوع ، وحيث تكثر وقائع الطلاق الذى يؤدى إلى التشرد والضياع .

ويقول « كلوت بك » فى تعدد الزوجات : « وقد بلغ من الشيوع مبلغًا فاضحًا مخزيًا ، لأنه إذا كان تعدد الزوجات يبيح للرجل الإمساك بقدر ما يريد من الزوجات فإنه يستطيع بالطلاق التزوج بقدر ما يشاء منهن ... وتعدد الزوجات والطلاق متحدان فى طبيعتهما لأنهما ناشئان عن أسباب بعينها ولابد طبعا أن يفضيا إلى نتائج متشابهة » .

---

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار جـ ٤ ، القاهرة : مطبعة المنار ١٣٢٥ هـ ص ٣٤٩ .
(٢) المرجع نفسه .

ويقول لقد سبق أن قلت : « إننى لا أستبعد وجود مسلمين فى القطر المصرى تزوجوا وطلقوا خمسين مرة ، لكن هذا من النوادر التى لا حكم لها . والمألوف المعروف وجود من تزوجوا وطلقوا عشر زوجات أو اثنتى عشرة زوجة أو عشرين » .

ويتحامل « كلوت بك » على الإسلام فيقول : « والديانة المحمدية قد أباحت تعدد الزوجات وقضت به على الجنس اللطيف أن يعتبر نفسه منحطا درجات عن مرتبة الرجال ، وسار شطر كبير من شعوب آسيا على النهج الذى إنتهجه الإسلام .

ويأخذ فى تلمس أسباب هذه الظاهرة فيرى أن السبب الأصلى مادى جسمانى ويؤيد سببه هذا بقول : لـ « مونتسكيو » ومؤدى هذا القول أن البلوغ المبكر للمرأة هو الذى يجعل الطفولة والزواج يسيران يدا بيد ، وهو ما يجعل الكهولة تتطرق سريعا إلى المرأة فيضطر الرجل إلى أن يستبدل بها غيرها خاصة وأن الدين لا يمنع من ذلك . ويعلق « كلوت بك » قائلا : إن هذا هو سبب الإنحطاط الذى تنكست فيه شعوب الشرق منذ آلاف السنين إذ غير منكور إن تعدد الزوجات هو الذى شل حركة هذه الشعوب وأوقفها عن التقدم إلى الأمام بما لابسها من الطبائع البهيمية وغيرها من العلامات المنذرة بهرم الأمم والشعوب التى ألقاها تعدد الزوجات مقهورة مدحورة تحت أقدام الفاتحين والمغيرين من الغربيين .

ويورد قولا آخر لـ « لامان » يؤكد به ما ذهب إليه ، ومضمون هذا القول أن الإنجليز قد أمكنهم فتح البلاد الهندية وقوة الإنجليز لا ترجع إلى عامل الجنس أو الأقليم أو الأنظمة السياسية والدينية . وإنما يرجع إلى أخذ الشرق كله بتعدد الزوجات حيث تضعف النفس والجسم .

يقول « لامان » والتنقل فى الملذات عند الشرقيين يحرك الراكد من شهوتهم ويوقظ النائم من مشاعرهم ولذا كانت الملاذ الجسمانية عندهم الكل فى الكل ، ومن عاداتهم لهذا السبب ألا تقع أعينهم على أوربى إلا يعتقدون أنه طبيب فيتهافتون عليه لاستكناه ما يظنونه متوفرا عنده من الأسرار التى لو أطلعوا عليها ، وأتيح لهم العمل بها لاستطاعوا مضاعفة ملذاتهم بإطالة أمد الإستعمار بها وما التجارة النافعة بينهم إلا تجارة العطارة والعقاقير التى تجهز بها المركبات المفيدة للباءة على إختلاف وجوهها .

ويرى « لامان » أن المرأة فى نظر الشرقى بضاعة يباح التصرف فيها : بحكم مشيئته ، فليس إلا أن ينظر إليها بعين الإحتقار والمقت ، ويعتبرها أحط منزلة منه ، بل تحفة يلتمس منها الشباب الغض والملاح المحبوبة ، والجمال الجسمانى ... وهذا الإنحطاط الذى أوجده على توالى الأزمان اعتياد الرضوخ لدواعى الإسترقاق والإستبعاد – أفضى بالمرأة إلى أوخم العواقب ، وأى تربية نفسية يمكن أن تعطى للأبناء فى طفولتهم الأولى ، وتلك الأيدى تتصرف فيهم بلا أى إحترام من ولد لوالدته إذا وقع نظره عليها وأحقر الخصيان يتولى تأديبها أو معاقبتها بالضرب بأمر من والده ؟ .

ويقول : مما تقدم يبدو جليا أن تعدد الزوجات يتناول تأثيره الضار الحالة النفسية لأصحاب الحرم والقصور وينعداها إلى طبقات الأمة ، وجميع الذين يهيئهم الإستعداد الطبيعى إلى التهيج الذى يعقبه الافراط فى الملاذ الشهوية .

ويقول « ستانلى لينبول » والواقع أن هناك كثيرا من المسلمين لهم مثل أخلاق المسيحيين فى هذه الناحية ويعنى بهذا الأكتفاء بزوجة واحدة ويرى أن مشكلة المشاكل الطلاق ويقول : « إن امرأة تزوجت من أربعين رجلا وأن ابنها قد تملكه الألم حينما حار فى التعرف على أبيه[1] .

ونكرر مرة أخرى – أن الإسلام غير مسئول عن ذلك ، وأن الديانة المحمدية لم تكن سببا فى الإنحطاط كما قال « كلوت بك » بل المسئول هو الواقع الذى عاشه المجتمع بكل ما فيه من جهل وتخلف وجمود . وما كان للفكر الإسلامى أن يزدهر وهو مكبل بهذه القيود ، فالفكر الإسلامى يتطلب الوعى والقدرة على إستيعاب روح العصر وفهمه فهمًا سليمًا .

ورغبة من الرجل فى أن يضمن خضوع المرأة له وإستمرار تبعيتها أراد أن يحجبها عن النور وأن يحول بينها وبين الحياة رغبة فى السيطرة وخوفا من العار فوضعها فى قيد الحريم .

---

(١) ستانلى لينبول ، سيرة القاهرة ، ص ٣٦ .

عزلتها عن الحياة وبعدها عن الواقع :

تحدثنا فى الفصل السابق عن الزينة والحجاب وأوضحنا رأى الإسلام فى هذا مستندين إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وتفسيرات المجتهدين ، وقلنا إن الحجاب لم يكن ليقصد به ما هو معروف فى العصر العثمانى من عزلة كاملة وحبس تام ، وإنما كان يقصد به درء ما يترتب على التبرج من فساد وريبة . ولم يكن الإسلام ليغفل الظروف التى قد تضطر المرأة للخروج إلى الحياة العامة ولذا قال تعالى : ﴿ .. إلا ما ظهر منها﴾ فأباح للمرأة الخروج حتى تؤدى مصالحها الضرورية .

أما فى العصر العثمانى فقد إختلف الأمر ، فنتيجة لسياسة القمع التى فرضها المستعمر التركى ، ونتيجة لرواسب الماضى التى رسخت فى الأذهان ونتيجة لجمود الفكر الإسلامى وللعزلة التى عاشتها مصر فى هذه المرحلة ببعدها عن تيار الحضارة الغربى بالإضافة إلى غيرة الرجل وحساسية الشرف والعرض خاصة وقد كثرت الجوارى والاماء اللاتى تغشى المجالس وتخالط الرجال بهدف الترفيه واللهو – نتيجة لكل هذا لم يقف الحجاب عند حد الثياب بل تجاوزه إلى الحبس فى الدار والإنعزال عن الحياة ، وهذا ما جعل « كلوت بك » يرفض الفكرة الشائعة فى أوربا عن الحرم ويقول إنها لا أساس لها من الصحة ولفظ الحرم ، يطلقه المسلمين على المسكن الذى يقتنه النساء وهو لفظ مأخوذ من الحرام ، ولعل وصف المرأة بالحرمة أحيانا يوضح قول « كلوت بك » .

وقد سجل كثير من معاصرى هذه الفترة نظام الحريم بجوانبه المختلفة وكان ابرز هؤلاء المعاصرين « كلوت بك » فى كتابه « لمحة عامة إلى مصر » – جزءان – وكذلك « أدوارد لين » فى كتابه « عادات وطرق المصريين فى – العصر الحديث » . و « ستانلى لينبول » فى كتابه « سيرة القاهرة » ، بالإضافة إلى التقارير التى كتبت عن هذا النظام كالتقرير الذى كتبه « بورنج » . ونود أن نشير إلى أن نظام الحريم لم ينته إلا فى وقت متأخر وأن تغييره تم بشكل تدريجى بعد أن توفرت كل الأسباب التى أدت لزواله ، وتستمد دراسات هؤلاء أهميتها من حيث إنها شهادة عيان يغلب عليها طابع الصدق والموضوعية .

يصف « كلوت بك » التقسيم الداخلى للحرم فيذكر أنه عبارة عن غرفة تجتمع فيها النساء لمشاهدة بعضهن البعض وإستقبال الزائرات ثم هناك حجرة لكل منهن تلحق بها غرف أخرى معدة لسكنى الجوارى والخدم وحفظ الحاجات المنزلية ، ونوافذ هذه

الحجرات تطل على الحديقة بعيدا عن الشارع ويشبه الحرم بالإديره الخاصة بالنساء فى نظامه وعزلة نسائه عن الحياة اليومية .

ويضيف « ستانلى لينبول » فيقول : وفى جناح الحريم نجد فى العادة حجرة كبيرة للجلوس تشبه المنظرة تسمى « القاعة » وكثيرا ما تكون هناك قبة فى أعلى هذه القاعة ، وأمام القاعة دهليز يستخدم للتهوية . ويقول وثمة جناح آخر هام فى جناح الحريم وهو الحمام ، وهو ليس عبارة عن حجرة خاصة بها مغسل للاستحمام مثبت فيها ، وإنما يتكون من عدة حجرات بعضها فى داخل بعض وهذه الحجرات مصنوعة من الحجر الذى يسخن بطريقة خاصة معقدة وهذا الحمام أشبه ما يكون بالحمام التركى العام[1] .

وعن الإتصال بالحريم فإن دور الحريم خاصة بالنساء فقط وما كان يسمح للرجل الأجنبى أن يدخلها أبدا ، فهن لا يستقبلن غير الزوج حتى إذا ما اتفق ودعى طبيب عنى بتغطية المريضة بإزارها وحضر العيادة معها أحد الخصيان[2] .

ويتحدث « ادوارد لين » عن السماح بدخول الخادم عليهن ويقول أن هذا جائز شرعا لأن الرسول ﷺ قد سمح لابنته فاطمة بأن يدخل عليها خادمها ، ويفسر هذا بأن العبد لا يتوقع أن يكون زوجًا لسيدته فجاز أن يدخل عليها .

ونتيجة هذا فقد كن يقمن بشراء حوائجهن من الدلالة التى تذهب إليهن فى عقر دارهن .

ويتحدث « بورنج » فى تقريره عن الاتصال بالحريم فيرى أنه أمر لا سبيل إليه ، يقول : هناك عقبة أخرى كأداء تصادف المشرع منذ البداية ، وهى أن أكثر نصف السكان لا تصل إليه يد القانون على الإطلاق ، فعدد الإناث فى بلاد الشرق تزيد كثيرا على عدد الذكور ومركزهن عقبة يكاد يستحيل تذليلها إذا أريد وضع نظام شامل لتشريع عادل ، وليست هناك قوة تستطيع أن تنفذ إلى داخل الحريم ، ومهما يرتكب فيه من آثام فإن يد الشرطة والقانون والرأى العام لن تستطيع الوصل إليه ، وهذا الحجاب الشديد ليس مقصورا على المسلمين ، فما من مسيحى حسنت تربيته يرضى أن يشير فى حديثه إلى من فى أسرة رجل آخر من الإناث أو إلى أنه يعرف شيئا عنهن بل تستعمل عند

---

(١) ستانلى لينبول ، سيرة القاهرة ، ص ٣٤ .

(٢) كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر . ص ٦٠٨ .

التحدث عن الحريم عبارات عامة مثل : بيتى أو جماعتى ، وليس من شك أن جرائم مروعة وأعمالا رهيبة ترتكب فى هذه المعتزلات التى لا تخضع لأى تفتيش أو تدخل أو رقابة[١] .

كذلك كان يرى « بورنج » أن نظام الحريم هذا كان يقف عقبة فى سبيل تعداد السكان فكل منزل حريم لا سبيل إليه . لذلك كان من الضرورى معرفة ما يجرى داخل الأسر أو ايجاد وسيلة لأرغام الأسرة على الأدلاء بالبيانات غير أنه ليست هناك قوة تستطيع أن تخالف تلك التقاليد[٢] .

وعن حياة الحريم ذكر « ستانلى لينبول » العناصر التى تشكل هذه الحياة فقال : فالمأكل والملبس ، والحديث والنوم ، والجلوس على الديوان ساعات طويلة ، والإستغراق فى الأفكار والأحلام ، ومحاولة أرضاء الزوج وكسب محبته وقصرها عليهن — كل هذه هى عناصر حياة الحريم[٣] .

ويورد قصة طريفة لكيفية امضاء الوقت فيذكر أن إمرأة إنجليزية سألت إحدى المصريات كيف تمضى الوقت ؟ فأجابت : إنى أجلس على هذه الأريكة فإذا ما إنتابنى الملل أو التعب نهضت لأجلس على تلك[٤] .

وأحيانا كن يبرحن الدار ويخرجن إلى الحمامات أو لزيادة الأهل والأقارب والصويحبات وهن ذوات اليسار وكان عليهن حينئذ أن يرتدين الثياب التى تغطى كل الجسم ، والثياب عبارة عن قميص من الحرير الأسود يسمى « السبلة » ثم يغطى القميص بازار واسع جدا من حرير « البافتا » يسمى « الحبرة » وهو يغطى الجسم كله ، غير أن حبرة المتزوجات تكون سوداء عادة بخلاف حبرة الفتيات فهى بيضاء اللون .

وعن وسائل الترفيه ففى أوقات فراغهن كن يدخلن السرور على أنفسهن بالألعاب المختلفة ، أو يستحضرون المغنيات والعوالم للتسلى بهن .

---

(١) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة مصر ، ص ٦٢٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨١ .
(٣) ستانلى لينبول ، سيرة القاهرة ، ص ٣٦ .
(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

والمرأة المصرية تهتم كثيرا بالزينة والتجمل ، لأنها شديدة الطموح إلى الظهور فى المظهر الفاتن لعقل الرجل وهى تخترع ألف وسيلة ووسيلة كلها من الغرابة بمكان .

ومما يتصل بعادات نظام الحريم عادة الختان وهى تجرى للبنت متى ناهزت السابعة أو الثامنة من عمرها وتؤدى هذه العملية بوساطة مقراض ردىء ، والهدف من هذه العملية هو التلطيف من حدة الشهوة . والمفروض فى المرأة أن تتعلم الطاعة والإحترام . ولأنها بمعزل عن الرجل فقد كان من النادر أن تستطيع التفرغ للخيل الغرامية ، ويقول « كلوت بك » أن الفتاة تظل تحافظ على فضيلة العفاف إلى وقت زواجها حيث تلزم بالدليل القاطع على بكورتها فالعفة ليست مرتكزة على قواعد أخلاقية وإنما هى إتقاء لبأس الزوج ، ويذكر أن المرأة المصرية تميل للمضاجعة لأنهن ربينا فى ظل الخمول والدعة .

ومن الضمانات التى وضعت لنظام الحريم حتى يؤدى وظيفته فكرة الخصيان فهم الحراس على النساء ويذكر « كلوت بك » أن مدينتى جرجا وأسيوط هما الوحيدتان من مدن القطر المصرى اللتان تباشران تلك العملية الشائنة .

هذا عن نظام الحريم فإذا أضفناه إلى ما سبق من أبعاد إجتماعية أمكن أن نستشف الحالة العقلية لها فلو أن المرأة كانت تحظى بقدر من التعليم لما كان هذا التخلف والإنحطاط .

تربية المرأة المصرية فى هذا العهد :

لا نتوقع أبدا – والمرأة المصرية تعيش هذه الظروف أن تكون على قدر من العلم أو الفكر « فليس لأولئك النسوة ثقافة من أى نوع ، وهن لا يستطعن أن يعرفن من المتع العقلية أكثر مما تقدره حواسهن ... والواقع أن الحور الجميلات اللاتى يتخيلهن الرجل وراء النوافذ الخشبية لسن من هذا النوع من النساء اللاتى يشغف بهن المرء كثيرا أو يلذ له التحدث إليهن ، فهن لا يجدن معرفة أى شىء ولا يفكرن فيما يدور حولهن فى قليل أو كثير ، وكل ما هنالك – أو على الأصح قليل منهن – جميلات وحسب »[1] .

ويذكر « كلوت بك » أنهن لا يتلقين من التربية العقلية شيئا لاعتقاد المسلمين أن المرأة أحط درجة فى العقل من الرجل ، ومفهوم أن الدين الإسلامى لم يفرض عليهن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

رعاية كاملة بسبب هذا الإنحطاط ، ويقول إنهن يجهلن القراءة والكتابة . ونرفض أن يكون هذا سببه الإسلام .

وتذكر الإحصائية التى أجريت متأخرة عن عصرنا هذا سنة ١٨٨٢م أن نسبة الفتيات فيما بين سن الخامسة والعاشرة اللاتى تعلمن القراءة والكتابة بلغ ستة وعشرين فى الألف ، يقابلها مائتان واثنان وأربعون فى الألف عند الذكور . بينما تبلغ النسبة لمن هن فوق العاشرة ثلاثة فى الألف يقابلها مائة وثلاثة وستون فى الألف لدى الذكور .

وإذا كان هذا فى سنة ١٨٨٢ م فطبيعى أن تكون النسبة اقل من ذلك كثيرا قبل هذا الوقت ، وهذا الإنحطاط إنما كان وليد الواقع لما ترسب فيه من آثار الماضى بسبب تلك الدعوات التى تحرم على المرأة التعليم إلا لبعض السور القرآنية والفرائض الدينية باعتبار أن التعليم مفسدة للمرأة . وقد عرفنا أن نظام الحريم بكل قيوده كان يهدف إلى درء هذه المفسدة الوهمية .

ويحاول « لينبول » أن يتهم الإسلام فيرى أن هذه النظرة الوضيعة للمرأة نابعة من الإسلام ، فالرسول عليه السلام يقول ما معناه « اطلعت فى الجنة فإذا أكثر أهلها من الفقراء واطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها فى النار من النساء . ويقول الرسول عليه السلام كذلك : إن المرأة خلقت من ضلع أعوج فإذا حاولت تقويمه كسرته ، وإذا تركته بقى على حاله ، ويذكر أيضا أن الرسول عليه السلام قال : إن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة قد خلقت فى الجنة ضحك مبتهجا ثم قال : إنك نصف مضيفى ، ومستودع سرى ، وسهمى الذى أصيب به ولا يخطىء » . وعلى هذا – حسب قول لينبول – فقد عامل الرجل المرأة على إنها مخلوق أقل شأنا ومجرد أداة للزينة ، وإذا أراد الزواج فهو لا يطلب فى المرأة غير الطاعة والجمال ، ويعاملها على أنها لعبة لطيفة أو وسيلة من وسائل الإتصال الإجتماعى ينجبن أطفالاً ، ويرعين شئون المنزل ومن ثم فإن الرجال قلما يعلمون بناتهم .

وفى ردنا على هذا نكتفى بما أوضحناه فى الفصل الأول حيث كان الهدف منه إبراز الصورة الصحيحة للمرأة كما بينها الإسلام ، واتخاذها معيارا فى التقييم إذا ما اختلطت الأمور وغمضت الحقيقة .

ومما هو جدير بالذكر أن حياة الحريم هذه لم تكن تعرفها المرأة الريفية فهى بحكم بيئتها مضطرة إلى الخروج ومشاركة الرجل فى القيام بأعباء الحياة وتلك هى وظيفتها الازلية ، ونحن حين نخص الحريم بالحديث فلأنهن يمثلن صفوة المجتمع النسائى فإذا كان هذا حظهن من الثقافة والتعليم فهذا يدل على تخلف المرأة وإنكار دورها فى الحياة وعدم الإعتراف بحقها فى التعليم .

العوامل المؤثرة فى تربية المرأة فى هذا العهد :

إن تقييم أى نشاط تعليمى إنما يكون – فى جانب من جوانبه – فى ضوء الأهداف العامة التى يسعى إليها ويعمل على بلوغها ، فالأهداف هى التى توجه العملية التربوية وترشدها وتوفر لعناصرها التكامل والترابط هى الخيط الذى ينتظم كل الوحدات الجزئية لهذه العملية .

وإذا نحن حاولنا الوقوف على حجم النشاط التربوى للمرأة المصرية فى هذا العهد ، وإلى أى مدى كان هذا النشاط حيا وفعالا – فإن المحك الرئيسى الذى يمكننا من ذلك إنما هو أهداف هذا النشاط . وتربية المرأة إنما يجب أن تهدف إلى : تحقيق الكيان الإنسانى لها – إعدادها للحياة الأسرية – إعدادها للحياة العامة .

وحين نبحث عن هذه الأهداف فى هذا العهد فإننا نستطيع القول بأن النشاط التعليمى للمرأة يكاد يكون معدوما ، طالما أن هذه الأهداف غير موجودة أو يمكن الوصول إلى بعضها بغير التعليم كالإعداد للحياة الأسرية – حسب منطق العصر وفكره الجامد – إذ يكفى فى اعداد المرأة للحياة الأسرية أن تكون ملمة بمسائل الطهى والخياطة وغير ذلك من الأعمال المنزلية التى يمكن تعلمها من أم البنت أو الماشطة .

ولاشك أن وراء إهمال تعليم المرأة والقصور فى أعدادها – عوامل متداخلة بعضها سياسى وبعضها إجتماعى وبعضها إقتصادى وبعضها فكرى .

١ – العامل السياسى :

قلنا إن الدولة العثمانية سارت فى أمرها على أسلوب البطش والإستبداد والأثرة والفردية ، وقلنا إن العلاقة بين الراعى والرعية لم تكن تتجاوز علاقة السيد بالمسود ،

والناس كما يقال على دين ملوكهم ، لذا كان طبيعيا أن تنتقل نزعة الإستبداد والبطش من الحاكم مع رعيته إلى الرجل مع زوجته أو إبنته ، شأن كل قوى مع ضعيف عندما تفتقد القيم ويتبلد الشعور ، فالرجل بحكم قوته وسلطانه يخول له أن يستبد ويستأثر بالأمر دون زوجته أو إبنته ، هو عليه القاء الأوامر وهى عليها التنفيذ دون أن تكون هناك مندوحة للنقاش أو التساؤل فالعلاقة إذا بين الرجل والمرأة هى علاقة كبت وإرهاب ومصادرة لكل رأى أو فكر وقمع لكل سلوك يتعارض مع طغيان الرجل ، يدخل الرجل داره فالكل يصمت ، وتهرع المرأة إلى تلبية طلباته واقفة على قدميها حتى تفرغ من مهمتها ، حتى فى الطعام لا يسمح لها أن تتناوله معه إذ ليس معقولا أن تجالس المراة الرجل فى طعامه ، وما زال لهذا بقاياه فى ريفنا .

٢ – العامل الإقتصادى :

عرفنا أيضا مدى السوء الذى وصلت إليه الحالة الإقتصادية فى هذا العهد ، وذكرنا أن موارد الدولة قد أهملت زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا أزاء جشع الحكام ونهمهم فى جمع الضرائب بالسوط والبطش ، وكان طبيعيا أن ينعكس هذا على البيت المصرى فيعمه الفقر والجوع ، وعرفنا أنه فى بعض الأحيان كانوا يأكلون الميتة .

وفى ضوء هذا ليس معقولا أن تتوفر للمرأة سبل التربية وهى تتطلب قدرا من المال تعجز الأسرة عن توفيره ، بل تعجز عن أن تجده لتسد به رمقها ، ويؤكد التاريخ أنه لا يمكن أن تكون هناك نهضة تعليمية متى كانت الحالة الأقتصادية سيئة أو مضطربة ، التعليم مرفق من المرافق العامة يتأثر بما تتأثر به المرافق الأخرى ويحتاج للموارد المالية التى تنهض به وتغذيه ، كذلك أيضا فإن الدولة العثمانية لم تكن تفكر فى إقامة المدارس والإنفاق عليها لسببين : لأنها تريد للشعب الجهل والتخلف حتى يبقى سلطانها ولأن الحكام لا يريدون غير اشباع رغباتهم وأهوائهم ولا يهمهم أمر هذا البلد فمصر إن هى إلا مجرد أرض زراعية تمدهم بما يحتاجون إليه ، وكما قلنا فإن بقايا المدارس والمعاهد التى ورثتها الدولة العثمانية عن سابقتها استحالت إلى حوش أو زريبة .

٣ – العامل الإجتماعى :

تحدثنا عن الحالة الإجتماعية للمرأة وعرفنا أن المرأة كانت تعيش فى سجن الإرهاب والتهديد ، غير مطمئنة على مستقبلها ، وعرضنا لبعض الأمراض الإجتماعية التى حطت

من شأن المرأة وزادت فى الاستهانة بها ومنها الطلاق وقلنا إن الكثير قد تلاعب بحد الله هذا وصار فى يد الرجل أداة تهديد وإرهاب ، وما أفظع أن تعطى القوة لإنسان جاهل ، هنا يكون الإندفاع والطيش والتهور ، وذكرنا أن تعدد الزوجات كان صنوا للطلاق ، فالرجل شعر أن المرأة هى مجرد متاع يمتلك يحق له التصرف فيه أنى شاء ، وحسبما يريد ، شأنها شأن أى شيء يمتلك ، هى كقطعة من أثاث البيت يمكن بيعها ويمكن استبدالها ، ولقد دفع إلى هذا الجهل وعدم الوقوف على المغزى الحقيقى الذى أباح الله تعالى من أجله هذا التعدد .

وضنا من الرجل بالمرأة كشيء يمتلك وضع نظام الحريم وكأنه خزينة تحفظ ثروة ولقد كان نظام الحريم حجابًا كثيفًا حال بين المرأة وبين الحياة من حولها ، لقد كان سجنا لها عليها أن تقضى فيه كل حياتها ، فعاشت المرأة المصرية فى هذا العالم الضيق المحدود وحرمت نور الحرية ولم يكن للمرأة أن تعرف شيئا عما يحيط بها إلا عن طريق الدلالة تلك التى تحمل إليها غالبا سيىء القول ورديء الخبر وقبيح السلوك ، حتى فى زواجها لم يكن يتيح لها هذا النظام الجامد أن تختار شريك حياتها أو تطلع عليه ، وإنما ترغم إرغامًا على معايشته ، إنها كالورقة المالية تنتقل من يد إلى يد دون أن تملك من أمر نفسها شيئا .

وطبيعى أن يكون لهذه البيئة أثرها فى ضيق الأفق وتفاهة التفكير وعشوائية التصرف والإنقياد اللا ارادى والإستسلام المطلق ، إنه قتل للكرامة الإنسانية .

هذه الأمراض الإجتماعية كانت كفيلة بأن تحول بين المرأة وبين تعليمها وأعدادها للحياة إعدادًا واعيًا سليمًا .

٤ – التخلف الفكرى :

وهذا العامل وثيق الصلة بالعوامل السابقة فلو أنه توفر للحياة المصرية فى هذا العهد النضج الفكرى أو الوعى الثقافى – لربما أمكن التخفيف من وطأة هذا التخلف الذى عاشته المرأة لكن تخلف الفكر وتبلد الوعى ساهم فى إحكام قبضة الجهل على المرأة وعزلها عن الحياة من حولها . فالأمية هى الغالبة حتى لقد قال محمد على كما سترى – لقد جئت إلى مصر وكنت كمن يمسك بدبوس ينقب به من أجل البناء والنهوض ، فجهل

الرجال أنفسهم انعكس على المرأة ، وعدم وعيهم بالدور الذى يمكن أن تؤديه جعلهم يهملون تربيتها ، ولا يلقون له بالا .

ولم يكن للفكر الإسلامى أن يدعو لتعليم المرأة أو يشجع عليه ، بعد أن أصابه الضعف والجمود على النحو الذى عرفناه ، بل أن جمود الفكر الإسلامى ساعد على تعزيز جهل المرأة وتخلفها ، بحيث صار عقبة أمام حركات الإصلاح والنهوض التى حدثت فيما بعد ، ولقد حاولت السيدة فاطمه الأزهرية أن تظفر بشهادة العالمية ولكن رجال الأزهر لم يمنحوها لها رغم علمها والمامها بعلوم الدين واللغة .

وفى هذا الجو الفكرى المتخلف كانت الأقوال المأثورة عن عدم تعليم المرأة تجد لها رواجا وصدى بين الشعب ، كذلك أيضا فإن عدم العناية بالمؤسسات التعليمية وأهمالها ، وعدم الأخذ بالعلوم الحديثة ضاعف من جهل المرأة ومن تخلفها .

أماكن تربية المرأة المصرية فى هذا العهد :

عندما نحاول أن نتعرف على الأماكن التى كانت تتم فيها تربية المرأة حسب المفهوم السائد لتربيتها فى هذا العهد – فإنه يمكن القول بأن تربيتها كانت تتم فى : ١ – الكتاب ، ٢ – المنزل .

الكتاب :

كانت تذهب البنت إلى الكتاب لتلم أحيانا بأصول القراءة والكتابة ومبادىء الدين الأولية وكانت تخالط غيرها من أندادها من الأطفال ، غير أن تأثير الكتاب كان ضعيفا فما أن تبلغ البنت سن التاسعة ، وتبدو عليها علامات الأنوثة ، حتى تمنع من التردد على الكتاب وتأخذ فى الإستعداد للزواج .

ثم إن ما كانت تشاهده فى الكتاب من أساليب القمع والتهديد التى يزاولها الفقيه – كان يترك فى نفسها الأثر السيىء ويخلق فيها روح الخوف والإستسلام .

المنزل :

وفى المنزل كان يتولى تربيتها وأعدادها للحياة الأم ، فكانت الأم تعلمها أصول الطهو والخياطة والأعمال المنزلية الأخرى التى تحتاج إليها فى حياتها الزوجية كذلك فإن الماشطة كانت تعلمها أمور الزينة والتجمل .

على أنه قد يتردد على المنزل الفقيه الكفيف البصر الذى يقوم بتلاوة القرآن الكريم وإلى جانب التلاوة كان يقوم أحيانا بتعليم نساء المنزل أمور العبادة كالوضوء والصلاة والصوم وغير ذلك مما يحفظ عليها دينها .

وأحيانا كانت تتعلم سورة النور لما فيها من آداب خاصة بالمرأة ، لم تعرف المرأة مكانا آخر للتعليم غير هذا ، ولم تتزود بأى قدر من المعارف الأخرى مما ساعدها على الاعتقاد فى السحر والشعوذة وتفننها فى كيفية اجتذاب الرجل إليها حتى لا يطلقها أو يضم لها زوجة أخرى .

وكم كان لهذا من أثر سيىء فى تربية النشء وإضعاف المجتمع .